

الفصل الأول

فلسطين . . . إسرائيل

وعد بلفور ، وظروف صدوره - حق تقرير المصير : كيف طبق - انتهاء الحرب العالمية الأولى وإعلان حق الشعوب في تقرير مصيرها - إنجلترا في فلسطين - موقف اليهود من الهجرة إلى فلسطين - الوكالة اليهودية ونشاطها - مقاومة العرب في فلسطين للهجرة اليهودية - الصحافة المصرية - نظرية الاستيعاب - هتلر والنازية ودورها في زيادة الهجرة اليهودية إلى فلسطين - موقف الساسة العرب من قضية فلسطين - ثورة ١٩٣٦ - موقف مصر الرسمي من القضية - محمد محمود باشا يكتب إلى المستر نيفيل تشمبرلين - مؤتمر المائدة المستديرة في لندن سنة ١٩٣٩ - الحرب العالمية الثانية : مواقف اليهود والعرب من المتحاربين - سير الحرب حتى سنة ١٩٤٢ - تصريح إيدن حول انتظام الدول العربية في جامعة خاصة والدوافع إليه - التنافس الفرنسي البريطاني في المنطقة - محادثات إنشاء الجامعة العربية - وضع فلسطين في الجامعة العربية - تطور التفكير السياسي لليهود : من نظرية الاستيعاب إلى إقامة الدولة الصهيونية - موقف بريطانيا من هذا التطور - مقتل لورد موين في القاهرة - مؤتمر بلودان سنة ١٩٤٧ - طلب تقرير عروبة فلسطين من قبل الأمم المتحدة - فلسطين دولة عربية متسامحة - اليهود يصرون على الدولة اليهودية - التقسيم - مناقشة الأمر في الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة ١٩٤٧ - أمريكا وروسيا تعلنان موافقتهما على التقسيم - تحفظ بريطانيا - دلالاته - مفاجأة تخلى بريطانيا عن التزاماتها في فلسطين في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ - موقف الباكستان من تقرير لجنة التقسيم - الدعاية الصهيونية خلال نظر مشروع التقسيم - محاولة تأجيل نظر الموضوع إلى الدورة التالية - دعوة أبناء الجاليات العربية من مختلف الولايات لمواجهة النشاط الدعاوي الصهيوني - التصويت ومحاوله إسقاط مشروع التقسيم - ما بعد قرار التقسيم : الحرب - قوات المتطوعين أم القوات الرسمية - التغير المفاجئ في اتجاه الحكومة المصرية والدول العربية - مجلس الشيوخ يعقد جلسة سرية لمبحث الأمر - سير العمليات وصيغة البلاغات العسكرية - موقف إنجلترا - وساطة الكونت فولك برنادوت - موقف العرب من عقد الهدنة - انتهاء الهدنة الأولى واستئناف القتال - العمليات تسير في غير صالح العرب - اليهود يواصلون السعي للصلح مع العرب - اغتيال برنادوت بعد تقديمه تقريره - الجمعية العامة تنظر وصية برنادوت - موقف مصر والدول العربية منها - اليهود يقاومون المقترحات - اغتيال النقراشي باشا - إسرائيل تستمر في اتصالاتها مع العرب - رالف بانس يستأنف مهمة برنادوت في قبرص .

كانت الحرب العالمية الأولى لا تزال حامية الوطيس حين أعلنت إنجلترا في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٧ ، أنها تكفل لليهود إنشاء وطن قومي في فلسطين ، وقد عرف هذا الإعلان باسم تصريح بلفور ، نسبة إلى وزير الخارجية البريطانية الذي أعلنه .

وقيل إن السبب في إعلان هذا التصريح أن إنجلترا أرادت مكافأة اليهود على معاونتهم لها في الحرب ، وطلبت إلى زعيمهم ، مستر وايزمان أن يذكر لها ما تكافئهم به ، فطلب إنشاء هذا الوطن القومي في فلسطين ، فكان ما أراد .

ولم يكن هذا التصريح الذي أصدره وزير الخارجية البريطانية نتيجة محادثات قصيرة الأجل ، بل حدثت مفاوضات بشأنه استمرت من أواخر سنة ١٩١٥ ، وكانت الحكومة البريطانية متصلة في أثنائها بالحكومة الأمريكية في واشنطن ، ولذلك وافقت وزارة الخارجية الأمريكية على التصريح فور صدوره .

فلما انتهت الحرب العالمية الأولى بانتصار الحلفاء ، إنجلترا وفرنسا وأمريكا وإيطاليا ، قسمت الدول المنتصرة العالم إلى مناطق يختلف بعضها عن بعض في مبلغ ما لها من حق في الاستقلال والسيادة . ذلك لأن ما نصت عليه شروط الهدنة التي وضعها الدكتور وودرو ولسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية من حق تقرير المصير أثار في البلاد الخاضعة للنفوذ الأوربي جميعاً اندفاعاً نحو الحرية وحرصاً على تمتع كل بلد بسيادته واستقلاله . وأدى من ثم إلى حركات تنذر بالعنف تجابه هذه البلاد بها قوى الاستعمار الأوربي .

وكان الاستعمار هو الظاهرة السائدة في سياسة القرن التاسع عشر . ولم تكن أوربا ترى أن تسلم للأمم التي تستعمرها بحقها في الاستقلال ، بل كانت تريد أن تقصر هذا الحق على الدول الأوربية وحدها . مع ذلك رأت الدول المنتصرة تجزئة بعض الدول المنهزمة وإنشاء دول أوربية جديدة ، فجعلت من النمسا والمجر دولتين مستقل كل منهما عن الأخرى ، وأنشأت دول بولونيا ولتفيا وأستونيا وأقامت ميناء دانتريج الحرة ، وخلقت الممر البولوني الذي يصل بولونيا بدانتريج ، ورسمت خريطة أوربا بالصورة التي تخيلت أنها تكفل السلام في القارة الصغيرة المتحكمة في مصائر العالم أجيالا عدة .

فأما ما عدا الدول الأوربية فكان تفكير الساسة المنتصرين يومئذ متجهاً إلى أن يبقى ما كان فيها خاضعاً للنفوذ الأوربي كما كان ، وإلى تقسيم الإمبراطورية العثمانية المنهزمة

تقسياً يوافق اتجاه هؤلاء الساسة ، ويخضع الدول المتخلفة منها لإنجلترا أو فرنسا . وذلك برغم ما قطعتة إنجلترا على نفسها إبان الحرب من عهود مكتوبة في رسائل متبادلة بينها وبين الشريف حسين ، حاكم الحجاز من قبل السلطان العثماني ، تكفل بها استقلال البلاد العربية ، وما أدت هذه العهود إليه من ثورة البلاد العربية بدولة الخلافة الإسلامية ومعاونتها إنجلترا وحلفاءها معاونة كان لها أثرها في مصير الحرب .

قسمت الدول المنتصرة العالم إلى مناطق يختلف بعضها عن بعض في مبلغ ما لها من حق في تقرير المصير ، وأنشأت ما أسمته الانتداب الذي تخضع بموجبه بعض الدول غير الأوروبية إلى بعض الدول الأوروبية . وحرصت إنجلترا على أن تكون الدولة المنتدبة في فلسطين وفي العراق ، وعلى أن نخضع لسلطانها شرق الأردن ليمتد نفوذها من شرق البحر الأبيض المتوسط إلى قلب آسيا ، وأن تخلق لها من النفوذ في إيران المستقلة ما يصل سلطانها إلى مستعمراتها الآسيوية ، الهند وبرمانيا ، وغيرهما من بلاد الجنوب والجنوب الشرقي في القارة الآسيوية .

وطوع لها انتدابها في فلسطين أن تنفذ وعد بلفور بأن تفتح لليهود باب الهجرة إلى الأرض المقدسة . وقد كان زعماء اليهود يطمعون أن تسرع هذه الهجرة إلى «أرض المعاد» لحافز من عقيدة اليهود الدينية بأنهم أصحاب فلسطين منذ ألقى سنة ، وبدافع قوى من الحركات العنيفة المقاومة للسامية ، والتي كانت تجعل اليهود موضع المقت والاضطهاد في بلاد أوربا كلها . لكن هذا المطمع لم يجد له صدى قوياً بعد الفترة الأولى من الانتداب البريطاني . فقد رأى اليهود الذين هاجروا إلى «أرض المعاد» أنها لا تنيلهم من أسباب الرخاء ورغد العيش ما تنيلهم إياه البلاد الأوروبية التي يعيشون فيها ، كما رأوا من مقاومة أهل فلسطين العرب ، مسلمين ومسيحيين ، لهذه الهجرة ما جعل كثيرين ممن هاجروا يعودون أذراجهم إلى البلاد التي نزلوا منها ، مؤثرين ما يلقونه من عنت مصدره الحركات المقاومة للسامية على هذا الشظف وهذا العنت الذي يلقونه في «أرض «صهيون» . فالحركات المقاومة للسامية لم تكن عنيفة إلى حيث تزعج اليهود الذين ملكوا ناصية المال والصناعة والعلم في البلاد الأوروبية المختلفة ، والذين استطاعوا لذلك أن يكونوا أصحاب الكلمة النافذة في الكثير من شئون الدول الأوروبية الكبرى نفسها .

على أن زعماء الصهيونية ، وفي مقدمتهم مستر وايزمان ، لم ييأسوا ولم يلقوا سلاحهم

حين رأوا هؤلاء المهاجرين يعودون من حيث أتوا ، بل دأبوا على دعوة بنى دينهم إلى الهجرة لما أسموه بلاد أجدادهم الأقدمين . وكانوا يلتمسون في دعايتهم كل الوسائل التي يرونها تقنع اليهود على اختلاف ميولهم . أليست الكتب المقدسة تذكر أن مصير اليهود إلى «أرض المعاد» ؟ أوليس واجباً على كل يهودى سليم الإيمان أن يعمل على تنفيذ ما جاء في الكتب المقدسة ؟ هذه نعمة يتأثر بها من اليهود من لا يجدون في البلاد التي يقيمون بها من أسباب الطمأنينة إلى الحياة ما يطمعون فيه ، فسواء لديهم أن يعيشوا في أوربا أو في فلسطين . أما الذين لا يكفي الإيمان لهجرتهم إذا حرّموا الرخاء والثراء ، فقد حركتهم الدعاية من الناحية الحساسة في نفوسهم . فقليل لهم إن فلسطين ليست بلاداً فقيرة كما يتوهمون بل إن بها من الثروة البكر ما إن استغل أفاء على الذين يستغلونه فائدة لا مثيل لها في البلاد التي يقيمون بها . أليس في فلسطين البحر الميت وبه من البوتاس وغير البوتاس ما يقدر بألوف الملايين ، بل بملايين الملايين . وليس البحر الميت وحده مصدر الثروة في «أرض المعاد» بل إن بها من مساقط المياه ومن الأرض الصالحة للزراعة ومن المعادن ما يغل الذهب الخالص . والأمر في استغلاله إنما يحتاج إلى رأس المال والعلم والمغامرة والمثابرة . ومن كاليهود أصحاب مغامرة ومثابرة وعلم ورأس مال ؟ ! ! فليشدوا رحالهم إلى البلد الموعد لتحقيق نبوءات الأنبياء وآى الكتب المقدسة .

كانت هذه الدعايات تزداد بين اليهود في مختلف أرجاء العالم وتحملهم على الهجرة إلى فلسطين . لكن ترددهم أول الأمر كان يحول دون السرعة في تنفيذ السياسة الصهيونية . وقد رأى وايزمان وأعوانه أن هذا التردد طبعى ، وأن التغلب عليه يقتضى رسم سياسة عملية تشجع المتردد وتدعوه لأرض أجداده السابقين .

لهذا أنشأوا الوكالة اليهودية وجمعوا من يهود أمريكا وأوربا مبالغ ضخمة أقاموا بها مدينة تل أبيب بجوار يافا . وبدأت الوكالة اليهودية تشتري بأثمان باهظة أراضى العرب الذين لم يفتنوا أول الأمر لما لبيعهم أراضيتهم من خطر على وطنهم ، بل أغرتهم الأثمان الغالية فحسبوا أنهم يستطيعون أن يستعوضوا بها عما يبيعونه أرضاً أوسع رقعة وثروة أكثر غلة ، وبذلت الوكالة اليهودية في تل أبيب جهوداً جبارة للتشجيع على الهجرة فكانت تلقى بعض النجاح أحياناً ، وكان يصادفها أحياناً أخرى ما يكاد يفت في عضدها . فقد كان كثيرون من المهاجرين يشعرون بعد زمن من مقامهم بفلسطين بالحنين إلى الوطن الذى ولدوا به

ونشأوا فيه فيعودون إليه . وكذلك كانت الهجرة الصهيونية بين المد والجزر سنوات متعاقبة . على أن يهود أوروبا ، ويهود أمريكا بنوع خاص ، لم يضمنوا بالمال يبدلون للوكالة اليهودية يعاونونها به على تنفيذ سياستها . ولم تكن حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين تضمن هي الأخرى بتأييد الوكالة اليهودية فيما تبذله من جهود لتحقيق أغراض الصهيونية .

أما أهل فلسطين العرب فلم يكونوا يشعرون بادئ الرأي شعوراً قوياً بخطر هذه الهجرة وهم يرونها بين المد والجزر . على أنهم رأوا ضرورة مقاومة وعد بلفور بعد سنوات قليلة من الانتداب ، وبعد أن رأوا حركة بيع الأراضي تمتد امتداداً دس إلى نفوسهم بواعث الإشفاق ، بل بواعث الوجل .

وشعر دعاة اليهود بما قد يترتب على هذه المقاومة العربية في فلسطين من أثر يتجاوز بلاد كنيسة القيامة والمسجد الأقصى إلى ما وراءها من الأقطار العربية ، فبدلوا جهودهم ليحولوا دون تأييد مصر لجارتها الصغيرة . جاءنا في جريدة « السياسة » يهودى بدأ يكتب عندنا مقالات في شئون شتى لا علاقة لها بفلسطين ولا بالهجرة اليهودية ، ثم حدثني في تأييد « السياسة » للحركة الصهيونية ، بحجة أن العرب واليهود من الجنس السامي الذى يقاومه الأوروبيون بكل قوتهم ، وأن تضافر أبناء هذا الجنس صاحب الفضل الأول في إقامة الحضارة الإنسانية يقضى على تحكم أوروبا الآرية في أبناء الساميين . وزاد على ذلك أن « السياسة » تفيد من هذا التأييد فائدة مادية جسيمة ، فاعتذرت له عن عدم إجابة مطلبه « فالسياسة » جريدة حزبية طابعها إسلامى ، وتأييدها للحركة الصهيونية لا يتفق مع مبادئنا . وعرض الرجل أن نجعل من « السياسة » منبراً حراً في هذا الاتجاه ، فاعتذرت مرة أخرى بأن مصر توازر البلاد العربية جميعاً في المطالبة بالاستقلال وتقرير المصير ، وأن « السياسة » على أية حال تفقد الشيء الكثير من نفوذها إذا أيدت حركة ضد العرب ، في فلسطين كانوا أو في غير فلسطين . وأحسب أن جهوداً من هذا النوع قد بذلت لدى غير « السياسة » من الصحف ، فلم تلق من الأثر خيراً مما لقيت عندنا .

ولم تكن صحيفة مصرية تستطيع أن تؤيد الحركة الصهيونية بحال . فقد بدأت صيحة فلسطين ضد الهجرة اليهودية ترتفع شيئاً فشيئاً ، وبدأ رجال من ذوى المكانة في مصر يؤيدون هذه الصيحة تأييداً حاراً . أيدها بعضهم متأثراً بعاطفة دينية ، وأيدها آخرون تأييداً سياسياً أساسه أن وجود وطن يهودى إلى جانب مصر يسىء إلى حياة مصر الاقتصادية

والسياسية على سواء ، هذا إلى أن هجرة قوم إلى بلد برغم أهله يؤدي بطبيعته إلى تضيق أرزاق أصحاب هذا البلد من غير مسوغ ، ويدفعهم إلى الثورة بهؤلاء المهاجرين ثورة بعيدة الأثر محفوفة نتائجها بأشد الأخطار .

تبلى السيد أمين الحسيني مفتى القدس الأكبر زعامة الحركة المقاومة للهجرة الصهيونية إلى بلاده . وكان السيد أمين يومئذ شاباً في مقتبل العمر لما يتجاوز الثلاثين أو الخامسة والثلاثين ، وسم الطلعة ، عذب الحديث رقيق الحاشية ، وهو إلى ذلك صلب العود ، قوى الشكيمة ، يؤازره في قوته وفي صلابته عوده مركزه الديني في الإفتاء من ناحية ، ومركز أسرته وجلال شأنها في البلاد المقدسة من الناحية الأخرى . وقد اتجه السيد أمين منذ اللحظة الأولى إلى العالم العربي وإلى العالم الإسلامي كله يطلب مؤازرة هؤلاء وأولئك في مقاومة هذا العسف الذي نزل ببلاده ، والذي يؤدي ، إذا بلغ غايته ، إلى إخراج العرب من ديارهم ولم فيها أكثر من ألف وثلثمائة سنة ، منذ فتحها عمر بن الخطاب إلى وقتنا الحاضر .

تزعم السيد أمين الحسيني حركة المقاومة ودعا إلى عقد مؤتمر إسلامي في القدس يقف في وجه الهجرة اليهودية . وقد لبي دعوته كثيرون من الأقطار الإسلامية المختلفة ، أذكر من بينهم محمد علي علوبة (باشا) وعبد الحميد (بك) سعيد من المصريين ، والسيد عبد الرحمن الصديقي من مسلمي الهند ، وأمثالهم من ذوي المكانة في العراق وسوريا وإيران وغيرها من البلاد الإسلامية . وقد لقي هذا المؤتمر نجاحاً عظيماً وكان له في كل جانب من جوانب العالم الإسلامي صدى قوى تداول سمع الناس جميعاً .

كيف تواجه السياسة البريطانية هذه الحركة ؟ إنها حريصة على صداقة العرب والمسلمين ، حريصة كذلك على تنفيذ وعد بلفور بعد أن ارتبطت به وجعلته أساساً من أسس سياستها في الشرق الأوسط . لا بد لها إذن من أن تجد الوسيلة لإرضاء العرب وإرضاء اليهود جميعاً ، وأن تبدو في مظهر من يريد التوفيق بينهما على أساس عادل . أما اليهود طارئون على البلاد فلا يجوز أن تبلغ هجرتهم حداً يقلق بال العرب على طمأنينتهم للعيش فيها ، ولا بد لذلك من تحديد الهجرة اليهودية حتى لا تتجاوز القدر الذي تستطيع البلاد أن تستوعبه من الناحية الاقتصادية . وقبل العرب ، وقبل اليهود ، نظرية الاستيعاب هذه ، وجعل اليهود يقولون إن فلسطين تتسع لاستيعاب عشرات الألوف بل مئات الألوف من المهاجرين ، وجعل العرب يعارضونهم في ذلك ويقولون إن قدرة فلسطين على الاستيعاب محدودة . بهذا

نصبت إنجلترا نفسها حكماً بين الفريقين ، فأودت لجناً تبحث قدرة البلاد على الاستيعاب ، وجعلت هذه اللجان تضع تقارير تؤيد بها وجهة النظر العربية حيناً ، ووجهة النظر الصهيونية حيناً آخر . بذلك كانت الأعوام تتلاحق وتنقضى ثم لا تقض الهجرة الصهيونية مضجع أحد ، لأنها كانت مترددة بين المد والجزر كما قدمنا .

ولعلها كانت تبقى كذلك عشرات السنين برغم ما كانت الوكالة اليهودية تبذله من جهود جبارة في إقامة المنشآت وفي شراء الأراضي إغراء لليهود على المجيء إلى فلسطين . لكن الإغراء لم يكن على جسامته كافياً لدفع يهود أوروبا إلى التزوج عن أوطانهم التي ولدوا فيها لولا تطور السياسة الأوروبية تطوراً دفع اليهود إلى الهجرة مضطرين غير مختارين .

فقد تزعم أدولف هتلر حركة النازية في ألمانيا ثم حصل على الأغلبية في انتخابات سنة ١٩٣٢ ، وتولى رئاسة الرايخ الألماني إثر وفاة المارشال هندنبورج . ونشر هتلر كتابه « كفاحي » يعلن فيه الحرب على يهود ألمانيا وعلى يهود العالم كافة . وأصدر من القوانين ما جعل مقام اليهود في أوروبا الوسطى عسيراً بل محفوفاً بالمخاطر . عند ذلك اندفع هؤلاء اليهود إلى فلسطين ، وهناك تطورت ثورة العرب من أهل البلاد بهذه الهجرة إلى ناحية العنف الرهيب .

كانت البلاد العربية والبلاد الإسلامية تعطف على عرب فلسطين أشد العطف . لكن حكومات هذه البلاد كانت تقف من هذه المشكلة الدولية موقفاً سلبياً بحتاً ، وكان ساسة مصر على اختلاف أحزابهم يرون في هذا الموقف السلبي حكمة غاية الحكمة . فمشكلة العلاقات المصرية البريطانية وتنظيمها كانت تحتاج إلى كل جهد تستطيع مصر بذله ، فإذا وجهت الجهود إلى فلسطين أو غير فلسطين أضعف ذلك نشاطها في السعي لاستقلالها وسيادتها . كان سعد زغلول (باشا) وغير سعد زغلول (باشا) من ساسة مصر يقولون هذا صراحة ، وإن لم يمنعهم قوله من العطف على فلسطين والأسف للسياسة المتبعة فيها . وكانت الحكومات العربية الأخرى كالعراق وشرق الأردن ، تقف من فلسطين مثل هذا الموقف . ولم يكن لهذه الحكومات ، وكلها خاضعة للنفوذ البريطاني . أن تصنع شيئاً يذكر . لهذا كان مجهود أبناء فلسطين مجهوداً قومياً صادقاً ، وكانت ثورتهم بالهجرة اليهودية وبيع أراضي العرب لليهود عنيفة غاية العنف ، لم يخفف منها ما حدث من انقسام بين زعماء العرب الفلسطينيين ، وما كان من خلاف بين السيد أمين الحسيني ممثل العنصر

المتطرف ، والسيد راغب النشاشيبي ممثل العنصر المعتدل . وقد لا يخطئ من يذكر أن هذا الانقسام أدى إلى مزيد من عنف الثورة العربية في هذه البلاد المقدسة في سنة ١٩٣٦ . وقد كان لهذه الثورة أثر حاسم في تطور الأحوال ، لا في فلسطين وحدها بل في الشرق العربي كله . ولهذا يحاول بعضهم أن يرد أسباب هذه الثورة إلى عوامل يتعذر أن يؤكد الإنسان صحة الاستنتاج فيها . ذلك أن اليهود الذين لم يجدوا في مصر معيناً لهم على توطيد أقدامهم في فلسطين فكروا في الاستعانة بسوريا ولبنان ، وكانتا يومئذ خاضعتين للانتداب الفرنسي ، كما فكروا في التفاهم مع السيد أمين الحسيني نفسه . ويقول العارفون إن اتفاقاً مكتوباً تم بين الوكالة اليهودية وبين سوريا ولبنان ، أقره السيد أمين الحسيني وإن لم يوقعه ، على أن يستخدم اليهود نفوذهم لدى الحكومة الفرنسية لتعقد كل من سوريا ولبنان معاهدة على غرار المعاهدة التي عقدتها إنجلترا مع مصر ، في مقابل أن تعترف سوريا ولبنان بالوطن القومي لليهود في فلسطين . وقد حدث بالفعل أن تفاوضت الحكومة الفرنسية مع سوريا ولبنان ووقعت اتفاقاً عرف باسم الفرنسي الذي وقعه - اتفاق فينو - على أن يعرض على البرلمان الفرنسي لإقراره . وترامت أنباء ما حدث إلى عنصر المتطرفين قبل أن يعرض الاتفاق على البرلمان الفرنسي فقامت ثورة فلسطين فلم يجرؤ من وقعوا اتفاقهم مع اليهود من ساسة سوريا ولبنان أن يعترفوا بالوطن القومي والثورة قائمة . عند ذلك أبلغهم اليهود أنهم في حل من اتفاقهم . فبدلوا نفوذهم لدى البرلمان الفرنسي ، فرفض اتفاق فينو .

هزت ثورة سنة ١٩٣٦ البلاد المقدسة وهزت غيرها من البلاد العربية فلم تستطع حكومات هذه البلاد أن تحتفظ إلى النهاية بسياستها السلبية إزاء المشكلة الفلسطينية . لذلك دعا غير الرسميين من أبناء مصر المعنيين بهذه الحركة ، وفي مقدمتهم محمد علي علوبة باشا ، إلى مؤتمر عربي يعقد بمصر في أوائل سنة ١٩٣٨ لمناصرة قضية فلسطين . واشترك في هذا المؤتمر عدد كبير من ذوى المكانة في البلاد العربية وفي البلاد الإسلامية . وكانت وزارة محمد محمود باشا هي القائمة بالأمر يومئذ في مصر ، فلم تفكر بطبيعة الحال في منع هذا المؤتمر أن يعقد بالقاهرة ، ولم تدعه يعقد وينفض بعيداً عنها ، بل رحبت به وزادت على الترحيب أن دعت أعضائه إلى حفلة ألقى فيها محمد محمود باشا خطاباً رسمياً أيد فيه مطالب العرب وأبدى فيه صادق الرغبة أن توفق الحكومة البريطانية إلى إيجاد حل عادل ينصف أبناء هذه البلاد ويرضيهم .

ولم يقف محمد باشا محمود عند هذا الترحيب وهذا الخطاب الذي وجهه السياسة

الرسمية لمصر وجهة جديدة ، بل غنى بالمسألة الفلسطينية عناية جدية ، اقتناعاً منه بأن حلها حلاً يرضى مطالب العرب المسلمين والمسيحيين من أهل تلك البلاد يجنب مصر متاعب من الخير تجنبها في المستقبل . وامتدت عنايته من بعد إلى التفكير في الوسيلة العملية لتحقيق هذا الغرض ، وفي انتهاز الفرصة لتنفيذ هذه السياسة العملية . فبعد أشهر من انقضاء المؤتمر انتهز فرصة ظنها مواتية فقد ذكر موقف مستر نيفل تشمبرلين رئيس الوزارة البريطانية إذ ذاك من الحرب التي كانت موشكة أن تقع في صيف تلك السنة ، سنة ١٩٣٨ ، وكيف وفق إلى تجنب وقوعها بالاتفاق الذي عقده مع هتلر في ميونيخ ، فأراد محمد باشا أن يتخذ من هذا الموقف فرصة تعاون على حل المسألة الفلسطينية ، فخطا خطوة لا يعرفها إلا القليلون . ولم تؤثر هذه الخطوة الشرة التي كان يرجوها ، لكنها مع ذلك جديرة بأن تسجل وأن يحفظها التاريخ .

ولا أحسبني في حاجة إلى تذكير القارئ بموقف مستر نيفل تشمبرلين من الحوادث الدولية التي كانت تضطرب بها عواصم أوروبا في صيف تلك السنة . فمنذ تولى أدولف هتلر زعامة الرايخ الألماني بعد سنة ١٩٣٢ اتجهت سياسته إلى توسيع رقعة الدولة الجرمانية لتشمل جميع البلاد التي يقطنها عنصر جرمانى ، ولهذا ضم النمسا وأراد أن يضم بلاد السودان من أرض تشيكوسلوفاكيا ، وتحدث الناس عن تفكيره في ضم الممر البولوى وكان يفصل بروسيا الشرقية عن سائر بلاد الرايخ ، كما تحدثوا عن تفكيره في التوسع في أرض بولونيا . وكان يعتمد في هذا التوسع على نظرية « المجال الحيوى » لألمانيا ، وعلى تفوق الجنس الجرمانى وحقه في حكم الشعوب . وأدت سياسته هذه إلى اضطراب في السياسة الأوروبية في صيف ذلك العام اضطراباً تبدت معه نذر الحرب تهدد السلام في أوروبا . وكانت إنجلترا وفرنسا قد كفلتا سلامة بولونيا ، فكان طبيعياً أن تفكر الحكومة البريطانية فيما قد يتنافس عنه هذا الاضطراب ، وفي مبلغ استعدادها للحرب أو حرصها على استدامة عهد السلام حتى تتخذ عدتها لمواجهة الأحداث العالمية إذا لم يكن من وقوع الحرب بد . ورأى مستر نيفل تشمبرلين أنه يستطيع أن ينقذ العالم من خطر الحرب إذا هو التقي بهتلر وتحادث وإياه . وأجابه هتلر إلى ما طلب فالتقى الرجلان في ميونيخ واتفقا على أن تضم ألمانيا بلاد السودان وأن تقنع بذلك فلا تتعرض لغير السودان من البلاد المجاورة لها . وكنا نحن في مصر نقدر ما قد يترتب على قيام الحرب من تبعات نحملها نفاذاً لمعاهدة الصداقة والتحالف التي عقدت بين مصر وبريطانيا سنة ١٩٣٦ ، ولهذا تنفسنا كما تنفس العالم كله الصعداء

بعد اتفاق ميونيخ وحسبنا كما حسب كثيرون أن مستر نيفل تشمبرلين قد استطاع بهذا الاتفاق أن يقي العالم كارثة حرب عالمية ثانية أشد هولاً من حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ .

أراد محمد محمود باشا أن يتخذ من هذا الموقف الذي وقفه مستر نيفل تشمبرلين من أزمة الحرب في سنة ١٩٣٨ فرصة لحل المسألة الفلسطينية حلاً عادلاً ، فكتب إلى رئيس الوزارة البريطانية كتاباً نوه فيه بفضلله في التغلب على هذه الأزمة وإنقاذه العالم من الكارثة . وأهاب به أن يبذل لحل مسألة فلسطين جهداً جريئاً كذلك الجهد . وكان محمد باشا عظيم الرجاء في أن ينتج خطابه هذا من الأثر ما تطمئن له نفسه . لكن مستر نيفل تشمبرلين رد عليه شاكرًا له إشادته بجهوده ، ذاكرًا أنه كان جهداً مسرحياً ^(١) لا يجدى مثله في حل مشكلة فلسطين .

لم يصد هذا الخطاب رئيس الوزارة المصرية عن السعي في السبيل الذي بدأه . فقد دعت إنجلترا إلى مؤتمر « مائدة مستديرة » يعقد بلندن وتعالج فيه المشكلة الفلسطينية على ضوء التقارير التي وضعتها اللجان البريطانية . وقد جاء في آخر تقرير منها أن الهجرة الصهيونية بلغت الحد الذي لا تستطيع فلسطين بعده أن تستوعب مهاجرين آخرين . وندبت مصر على ماهر باشا ليمثلها في المؤتمر المذكور ، آملة أن يصل إلى اتفاق مع إنجلترا على حل لهذه المشكلة المعقدة . وانعقد المؤتمر ثم انفرط عقده من غير أن يصل إلى أية نتيجة إيجابية .

كان ذلك في أوائل سنة ١٩٣٩ . وبعد أشهر من عودة على ماهر باشا من لندن بدأ الجو الدولي الأوربي يضطرب من جديد . ثم بلغ اضطرابه أن تقوم الحرب العالمية الثانية في الأيام الأولى من شهر سبتمبر لتلك السنة . عند ذلك سكنت عواصف فلسطين وأبدى العرب واليهود جميعاً استعدادهم لمناصرة الدولة المنتدبة . وكان طبعياً أن يناصر اليهود إنجلترا في دفاعها عن استقلال بولونيا ضد الاعتداء الألماني . فهتلر هو الذي شن على يهود العالم جميعاً غارته الشعواء ، وهو الذي أخرج يهود أوروبا الوسطى من ديارهم ودفعهم إلى الهجرة إلى فلسطين ، فلا عجب أن تقف اليهودية العالمية ضده وأن تنصر أعداءه . أما العرب فقد نظروا إلى المسألة من وجه آخر ، فلا يجوز في عرف المروءة العربية أن يناصب الإنسان العداوة من كان صديقه بالأمس لغير شيء إلا أنه أصبح في مأزق خطير . هذا إلى أن عرب فلسطين كانوا يقدررون أنهم لا يقدررون على كثير إذا هم ناءوا الإمبراطورية البريطانية في هذه الحرب الضروس . مع هذا ذهب السيد أمين الحسيني فانضم إلى الألمان

وأقام بيرلين معظم سنوات الحرب ، كما أنه كان ينظر بعين العطف إلى ثورة الثائر العراقي رشيد عالي الكيلاني ، الذي قام في بغداد بحركة معادية لإنجلترا عداوة سافرة . كانت أعلام النصر تسير في ركاب الجيوش الألمانية في سنوات الحرب الأولى ، وكان ذلك مشجعاً للذين قاموا بهذه الحركات العدائية ضد الإمبراطورية البريطانية . وظل الأمر على ذلك بعد أن أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا . وإلى أن دخلت الولايات المتحدة الحرب في صف إنجلترا في شهر ديسمبر سنة ١٩٤١ . عند ذلك بدأت كفة الميزان بين المتحاربين تعتدل تمهيداً لانتقال أعلام النصر إلى جانب أمريكا وإنجلترا وروسيا . وفي سنة ١٩٤٢ أعلن مستر أنتوني إيدن وزير الخارجية البريطانية في مجلس العموم البريطاني أنه إذا فكرت البلاد العربية في تكوين جامعة لها فإن إنجلترا تنظر إلى هذه الجامعة بعين العطف .

لا غناء في الوقوف عند الجدل الذي ثار يومئذ حول هذا التصريح والأسباب التي أدت إليه ، فهو لا ريب حلقة من سلسلة الحلقات التي جرت عليها السياسة البريطانية توطيداً لمركزها في الشرق الأوسط . والأمر يبدو كذلك بخاصة إذا نحن ذكرنا موقف إنجلترا من سوريا ولبنان قبل هذا التصريح . فقد كانت فرنسا هي الدولة المنتدبة في سوريا ولبنان منذ رسمت الدول الأوربية صورة العالم بعد نهاية الحرب العالمية الأولى . وكانت فرنسا ترجو أن تظل سوريا ولبنان موضع ارتكازها في الشرق الأوسط . فلما كانت الحرب العالمية الثانية وسلمت بعدها في سنة ١٩٤٠ ، وخرجت بذلك من ميادين القتال مهينة الجناح نازلة على إرادة الغزاة الألمان الذين احتلوا معظم أراضيها بالهدنة التي عقدوها مع المارشال بيتان ، رأت السياسة البريطانية الفرصة سانحة للاستئثار بالنفوذ في شرق البحر الأبيض المتوسط . لكنها كانت قد أعلنت من قبل أنها لا تبغى من وراء الحرب أى توسع في الأراضي الخاضعة لنفوذها ، لهذا رأت أن تشجع الحركات الاستقلالية في سوريا ولبنان . فلما نضجت هذه الحركات أصدرت تصريحاً بعطفها على مطلب هذين البلدين في الاستقلال ، عند ذلك اعترفت مصر باستقلال سوريا ولبنان في سنة ١٩٤١ .

وقد بقي موقف إنجلترا من ثورة القطرین العربية بالسلطان الفرنسي يحز في نفس فرنسا إلى اليوم ، فلا تكاد تلتقي بصديق من الفرنسيين لا يأبى بحكم هذه الصداقة أن يفتح لك قلبه حتى يذكر هذا الموقف ويراه غدراً من السياسة الإنجليزية بما انعقد بين فرنسا وإنجلترا من صداقة أملت أن تزال تمليها منافعهما المشتركة وحرصهما على سلامتهما ضد كل

غزو يهددهما من الشرق الأوربي ، سواء من أوروبا الوسطى أو من أوروبا الشرقية .
أيدت إنجلترا مطلب سوريا ولبنان في الاستقلال ، ثم أعلن وزير خارجيتها أن
الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف إلى جامعة للدول العربية إذا فكرت البلاد العربية
من تلقاء نفسها في إنشاء هذه الجامعة . ولم تلبث الحكومات العربية ، حين أبلغ إليها هذا
التصريح ، أن بدأت تفكر بالفعل في إنشاء هذه الجامعة . وأخذت الحكومة المصرية على
عاتقها دعوة سائر الدول العربية للتفاهم على الأسس التي يقوم عليها ميثاق جامعة تربط
هذه الدول معاً برباط متين . وتكررت المحادثات لهذا الغرض وانتهت إلى « بروتوكول
الإسكندرية » الذي وقعته الدول العربية في ٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤ .

ما عسى أن يكون مركز فلسطين من هذه الجامعة ؟ أتكون عضواً من أعضائها برغم
وقوعها تحت الانتداب البريطاني ؟ لم يكن هذا الانتداب ليمنعها من هذه العضوية فقد
كانت شرق الأردن تحت الانتداب البريطاني ، وكانت مع ذلك من البلاد التي اشتركت
في مناقشات القاهرة والإسكندرية لتكون عضواً في الجامعة . ولم يكن الانتداب الفرنسي
على سوريا ولبنان قد انتهى دولياً ، وكاننا مع ذلك شريكتين رئيسيتين في المحادثات لتأليف
الجامعة . لكن فلسطين لم تكن بها حكومة قومية من أبنائها ، بل كانت السلطات البريطانية
تتولى حكمها مباشرة ، فلم تمثل تمثيلاً رسمياً في المحادثات . مع هذا لم يفكر أحد من
ممثلي الحكومات العربية في استثناء فلسطين من البلاد العربية التي تضمها الجامعة ، بل
انجبه التفكير إلى الوسيلة التي تمثل بها على الرغم من عدم قيام حكومة قومية فيها .

تغيرت الوزارة المصرية التي كانت قائمة بالمحادثات التمهيدية لإنشاء الجامعة العربية
وألّف أحمد ماهر باشا الوزارة خلفاً لمصطفى النحاس باشا . وتطورت المحادثات بعد بروتوكول
« الإسكندرية » إلى مفاوضات لوضع الصيغة النهائية لميثاق جامعة الدول العربية ، وقد
واجهت هذه المفاوضات غير مرة صعوبات منشؤها مبالغة كل من الدول العربية في الحرص
على ألا يمس الميثاق سيادتها . وكان ممثل لبنان في هذا الدور من أدوار البحث ، السيد
هنري فرعون وزير الخارجية أشد المتفاوضين حرصاً على ألا تمس مادة ، وألا يمس لفظ
في مادة حرية بلاده في التصرف في شئون استقلالها وسيادتها . أما المملكة العربية السعودية
فكانت تجاري مصر كل المجارة في أثناء المفاوضات التي جرت ، في عهد وزارة أحمد ماهر
باشا ، وكان موقفها هذا يختلف عن موقفها قبل توقيع « بروتوكول الإسكندرية » . فقد
ظلت زمناً شديدة الحرص على حريتها في التصرف ، وعلى ألا يعوقها ميثاق الجامعة عما تريد

القيام به في أى أمر تراه ، وكان يبدو لذلك أنها لا ترحب بفكرة الجامعة العربية . وكان ذلك طبيعياً يومئذ لما كان بينها وبين مصر من احتكاك ، وبينها وبين الدولتين الهاشميتين ، العراق وشرق الأردن ، من خلاف أول الأمر . على أن الدول العربية استطاعت بعد محادثات طويلة أن تتغلب على هذه المصاعب كما استطاعت من بعد أن تنتهى إلى وضع الميثاق في صيغ لا يرتبط بنتائجها في السياسة والاجتماع والاقتصاد والتشريع وكل ما يتصل بسيادة الدولة في الداخل والخارج إلا من رضى هذا الارتباط مختاراً .

أى وضع جعل لفلسطين في ميثاق الجامعة العربية ؟ ! لم تكن لفلسطين حكومة قومية تستطيع أن توفد من يمثلها في مجلس الجامعة ، وهى جامعة حكومات لا جامعة شعوب . وفلسطين تعاني محنة لا تعاني غيرها من الدول العربية مثلها . فلم يكن طبيعياً أن تتخلى الدول العربية عنها أو تنساها ، لهذا أضيف إلى ميثاق الجامعة ملحق خاص قيل فيه إن من حق فلسطين الاستقلال والسيادة . وإن حرمانها من حكومة تمثل شعبها وتحدث باسمه طارئٌ مصيره إلى الزوال ، وفي انتظار زواله يباح لمجلس الجامعة أن يضم ممثلاً أو ممثلين لعرب فلسطين في كل اجتماع من اجتماعاته .

وقعت الدول العربية ميثاق جامعته بسرأى الزعفران بالقاهرة في ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ . وكنت أنا أحد الذين وقعوه عن مصر ، وقد تم توقيعه في جلسته علنية ألقى فيها رؤساء الوفود الممثلة للدول المشتركة فيه خطاباً كلها التفاؤل والرجاء .

وعقب ذلك مباشرة عقد مجلس الجامعة جلسته الأولى ، فكانت جلسة تاريخية خطيرة . ذلك لأن فرنسا حاولت استرداد نفوذها في سوريا ولبنان بحجة أنها صاحبة الحق في الانتداب عليهما بموجب صك الانتداب الذى أقرته عصبة الأمم . وتمسكت سوريا ولبنان بما لهما من حق في الاستقلال كسبتهما في سنة ١٩٤١ واعترفت به مصر وسائر الدول العربية . وكان مفهوماً أن إنجلترا تؤيد حركة سوريا ولبنان . أما فرنسا فقد سلكت مسلك العنف فضربت دمشق بالمدافع وقبضت على كثيرين من رجالات سوريا ولبنان ولجأت إلى البطش الذى حرصت السياسة البريطانية على أن تتحاشاه ما استطاعت . ولعل شعور فرنسا بموقف إنجلترا كان من الأسباب التى دفعته إلى سياسة العنف في الطبع الفرنسى حدة يثيرها برود السياسة الإنجليزية ويدفعها أحياناً إلى تخطي ما تمليه الحكمة وبعد النظر .

ووقفت جامعة الدول العربية إلى جانب سوريا ولبنان وأيدتهما بكل قوتها واعترفت

بحقهما في السيادة والاستقلال كاملين . وانتقلت الجامعة من مسألة سوريا ولبنان إلى مسألة فلسطين ثم أجلتها إلى دور مقبل يحضره من ينوبون عن فلسطين العربية ويتحدثون باسمها .

ومن يومئذ إلى الوقت الذي أكتب فيه هذه المذكرات - خريف سنة ١٩٥١ - لم تكن دورة من دورات الجامعة إلا عرضت فيها مسألة فلسطين بإفاضة وتفصيل ، وكان ذلك طبيعياً ؛ فالحوادث في فلسطين وموقف الدول الكبرى من السياسة الصهيونية كانا يتطوران تطوراً سريعاً يمس كل دولة من الدول العربية عن قرب أشد مساس .

لم يكن بدء هذا التطور راجعاً إلى نهاية الحرب أو إلى اقترابها من نهايتها ، بل كان يرجع إلى موقف العرب وموقف الصهيونيين في أثناء الحرب ومنذ بدايتها . فقد اشترك اليهود في الحرب إلى جانب الحلفاء اشتراكاً فعلياً ، وألفوا جمعيات من المحاربين كان لها أكبر الأثر فيما حدث من تطور . كانت فرقة (الهاجاناه) اليهودية من الفرق التي شاركت في الحرب بنصيب موفور ، وقد تألفت في ظل الوكالة اليهودية جماعات مسلحة انقلبت من بعد جماعات إرهابية سمت إحداها باسم (شترن) وتسمت أخرى باسم (أرجون زفاى ليومي) ، وفي ظل هذا التطور انتقلت الفكرة الصهيونية في تفسير تصريح بلفور نقلة واسعة ؛ فقد كان التصريح يعد اليهود بوطن قومي في فلسطين . وكانت بعض اللجان البريطانية التي ذهبت إلى فلسطين ورأت أن استيعاب البلاد للمهاجرين قد بلغ مدهاء فقررت أن إنجلترا قد وفّت بوعدها وأنشأت هذا الوطن القومي بالفعل ولم يعد من حق الصهيونيين أن يطالبوها بأكثر مما فعلت . أما الصهيونيون فذهبوا في العهد الأخير من الحرب إلى القول بأن إنشاء وطن قومي في فلسطين لليهود كان مرماء الطبيعي إنشاء دولة صهيونية هنالك ، وأن مقومات هذه الدولة تحققت فصار إنشاؤها واجباً ، ولذلك أعدوا عدتهم للمطالبة بتقسيم فلسطين ، قسم للعرب وقسم لليهود ، وأن يكون هذا القسم اليهودي دولة مستقلة ليس لغيرها من الدول أي سلطان عليها .

ماذا عسى أن يكون موقف إنجلترا من هذا التطور في تفكير اليهود السياسي ؟ أنقروهم عليه ؟ لم يكن ذلك مستطاعاً ؛ فهي كانت ترى شواطئ فلسطين من نقط الارتكاز الأساسية التي تعتمد عليها في شرق البحر الأبيض المتوسط ، بل كانت تحسب ، إذا رأت يوماً أن تجلو عن مصر ، أنها تستطيع أن تجعل فلسطين قاعدة قواتها في هذه المنطقة من العالم ، ولهذا أنشأت ميناء حيفا وأعدتها إعداداً حسناً ، صالحاً لأسطولها الحربي صلاحيته للسفن

التجارية ، لتجد فيها العوض لسد الضرورة عن ميناء الإسكندرية ، بل لهذا فكرت في مد أنابيب بترول العراق إلى حيفا لتمون سفنها من هذا البترول إذا عز يوماً عليها أن تمونها من بورسعيد أو من السويس ، ولهذا أيضاً أنشأت مطار اللد وأفسحت رقعة وجعلته مطاراً صالحاً لمواجهة أغراض الحرب صلاحيته لأغراض السلم . وقد استعمر اليهود أكثر موانئ فلسطين على البحر الأبيض ؛ فتل أبيب مقر نشاطهم تجاور يافا ، وليس بينها وبين حيفا مدى بعيد ، وليس بينها وبين اللد كذلك مدى بعيد . فإذا هم أنشأوا دولة في هذه الأماكن فأكبر الظن أن تؤول حيفا وأن يؤول مطار اللد إلى هذه الدولة ، وأن تتحطم بذلك تقديرات السياسة البريطانية في هذا الركن من العالم .

لكن إنجلترا لم تكن لتعترف بشيء من هذا أو تصرح به . وما لها تصارح بسياساتها هي ولديها في تصريح بلفور نفسه الحجة التي تتذرع بها لمقاومة هذه النزعة الصهيونية الجديدة . إنها تعهدت في تصريح بلفور بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، على شرط ورد في صلب التصريح بوضوح وجلاء . ذلك ألا يبغى إنشاء هذا الوطن القومي على حقوق العرب أهل البلاد . فالبقعة التي استعمرها مهاجرو اليهود على شواطئ فلسطين تحوى من العرب أكثر مما تحوى من اليهود . فيافا ، التي تجاور تل أبيب ، مدينة إسلامية عربية صرفة . وحيفا ليست يهودية بحال . والبلاد التي استقر فيها المهاجرون اليهود يسكنها من العرب المسيحيين والمسلمين ما يزيد على من هاجر إليها من اليهود . فإذا خضعت هذه المناطق لسلطان اليهود أدخل ذلك بوعد إنجلترا للعرب . وهذه الوعود تبعات حملتها إنجلترا وعهود ارتبطت بها . وليس من سياسة إنجلترا أن تنقض وعودها أو تتخلى عن تبعاتها ! ! لهذا وقفت أول الأمر تقاوم السياسة الصهيونية الجديدة ، وتظهر للعرب وداء أعظم الود .

كان ذلك هو الحال حين كانت محادثات الدول العربية متصلة لتأليف جامعة لهذه الدول . وكان لورد موين الوزير الإنجليزي للشرق الأوسط ، والمقيم بالقاهرة ، من أنصار هذه السياسة والمؤيدين لها بقوة وحماسة . وكانت إنجلترا تقدر أنها إذا أخذت الأمور بالحزم فوقفت من العرب واليهود موقف الحكم المنصف استطاعت التغلب على النزعة الصهيونية الجديدة ، وكسبت في نفس الوقت مودة العرب ، لا في فلسطين وحدها ، بل في كتلة البلاد العربية جميعها .

حدث ذلك في الأشهر الأخيرة من سنة ١٩٤٤ . وكانت الوزارة المصرية القائمة في الحكم يومئذ وزارة أحمد ماهر باشا . وكنت وزيراً للمعارف وللشئون الاجتماعية فيها .

ولقد دعانا الدكتور ماهر باشا يوماً لتناول طعام الغداء في « كلوب محمد علي » ودعا معنا بعض رجالات العرب ابتغاء التغلب على مشكلة قائمة في المحادثات الخاصة بإنشاء الجامعة العربية . ولم يكده جمعنا يلتئم حول مائدة الطعام حتى أقبل علينا حسن فهمي رفعت باشا وكيل وزارة الداخلية وأخبرنا أن رجلين مجهولين أطلقا الرصاص على لورد موين ساعة دخوله داره عائداً من السفارة فأردياه قتيلاً وفرا على دراجتيهما . وانزعج الدكتور ماهر باشا وانزعجتنا جميعاً لسماع الخبر خشية أن يكون القاتلان مصريين أو أن يعجز البوليس عن القبض عليهما فتثور بسبب هذه الجريمة أزمة بين مصر وإنجلترا تعطل ما كنا نفكر فيه من المطالبة بتعديل معاهدة سنة ١٩٣٦ تعديلاً يحقق استقلالها وسائر أهدافها القومية . لكننا لم نلبث إلا قليلاً ثم جاءنا النبأ بأن القاتلين قبض عليهما ، تعقبهما رجل البوليس الأمين عبد الله وكان على « موتوسيكل » فلاحق بهما وأمسك بتلايينهما ، وتبين أنهما شابان يهوديان صهيونيان جاءا من فلسطين خصيصاً لارتكاب هذه الجريمة ، بذلك سرى عنا وسكنت مخاوفنا وتناولنا طعامنا وتحدثنا في أثنائه عن غرض الصهيونية من ارتكاب مثل هذه الجريمة النكراء

ولم يحاول الشابان الإنكار حين حققت النيابة معهما ، بل اعترفا بأنهما من عصابة إرهابية في فلسطين أبيا - إلى أن حكم عليهما بالإعدام وأعدما - أن يذكر شيئاً عن تكوينها وأعضائها ، وأنهما ارتكبا جريمتيها لأغراض قومية صهيونية .

كان قتل لورد موين نذيراً من الصهيونيين بأنهم لن يتراجعوا عن القيام بكل عمل يحقق أغراضهم . وقد كشفت الحوادث بعد هذه الجريمة عن صدق عزمهم على المضي في سياسة العنف إلى نهايتها . فقد حاكم الإنجليز جماعة منهم لارتكابهم جرائم بذاتها فانتقموا من القضاة الإنجليز ومن الضباط الإنجليز وبذلوا غاية الجهد لإنقاذ بني قومهم ممن حكم عليهم وأودعوا السجن ، وتكررت مظاهر العنف في صور مختلفة دلت على أن وايزمان وأصحابه لم يعد يكفونهم من وعد بلفور أن يكون لهم في فلسطين وطن قومي يأوون إليه . بل يريدون أن ينشئوا دولة في أرض المعاد ، ولقد ذهب دعائهم في هذا إلى أنهم يريدون أن يجعلوا من فلسطين كلها دولة لهم ، وقيل أكثر من هذا إنهم قرروا في مؤتمراتهم السرية أن تمتد دولتهم من الفرات إلى النيل ، وإنهم إن أخفوا هذه السياسة وأنكروها علناً فهي سياستهم التي رسموها وصمموا على تنفيذها .

ما عسى أن يكون موقف الدول العربية من هذه التطورات ؟ لقد كانوا حينذاك في

شغل بما يتمخض عنه العالم من أحداث نتيجة انهزام ألمانيا وحلفائها الأوروبيين في الحرب ، وكانت الدول العربية متجهة بأنظارها إلى مؤتمر سان فرانسيسكو الذى دعت إليه أمريكا وإنجلترا وروسيا السوفيتية لوضع ميثاق الأمم المتحدة . ولما كانت الحرب ما تزال دائرة الرحى في اليابان ، ولم يكن أحد يتوقع نهايتها السريعة على نحو ما حدث بالفعل بعد أن ضربتها الولايات المتحدة بالقنابل الذرية ، لم يكن اتجاه الدول العربية إلى مسألة فلسطين واضح القوة . بل لعل هذه الدول لم تكن تقدر مدى ما يحول بخاطر الصهيونيين من مطامع ، أو أنها على الأقل لم تكن تقدر أن هذه المطامع ستلقى صدى قوياً في المجامع الدولية . لهذا كانت تبحث الأمر على هون ، مقتنعة دائماً بأن إنجلترا لن تدع اليهود يصبحون أصحاب الكلمة العليا في فلسطين اقتناعاً منهم بأن إنجلترا تحرص كل الحرص على أن تكون فلسطين نقطة ارتكازها الأساسية في الشرق الأوسط كله .

لكن مثابرة اليهود على خطة العنف التى بدأوها ومناوأتهم إنجلترا فلسطين مناوأة ظاهرة ، جعلت الدول العربية تفكر في أمر هذا القطر العربى تفكيراً جدياً . ولهذا دعت جامعة الدول العربية إلى عقد دورة خاصة لبحث المسألة ، وقررت أن يكون انعقاد هذه الدورة في مصيف بلودان من أعمال سوريا ، وحددت له موعداً شهر يونيو سنة ١٩٤٦ .

كنت على رأس الوفد الذى يمثل مصر في هذا المؤتمر ، وكان الوفد مؤلفاً من محمود فهمى النقراشى باشا ومكرم عبيد باشا وحافظ رمضان باشا واثنين من موظفى وزارة الخارجية المصرية . ولم يقم النقراشى باشا معنا ببلودان غير يومين اثنين عاد بعدها إلى القاهرة . ولم أعرف يومئذ سبب عودته ، فهو لم يفض إلى شئء عنها . لكنى علمت من بعد أن صدق باشا ، رئيس الوزارة ، كان قد بدأ يفاوضه في أمر الهيئة السعدية التى كان النقراشى باشا يومئذ رئيسها واشتراكها في الوزارة ، اقتناعاً من صدق باشا بأن اشتراك هذه الهيئة ييسر سبل المفاوضات التى كان قائماً بها هو وهيئة المفاوضة المصرية مع المفاوضين البريطانيين وعلى رأسهم لورد ستانسجيت .

بدأ مؤتمر بلودان أعماله يذكر مطامع الصهيونيين في فلسطين وما رسمته مؤتمراتهم من سياسة التوسع في البلاد العربية ، ثم أُلّف المؤتمر لجنة سرية لبحث الوسائل التى تقاوم بها الدول العربية هذه السياسة . وقد مثل حافظ رمضان باشا مصر في هذه اللجنة السرية ، ولم أعن كثيراً بما يجرى فيها ، برغم أننى كنت على رأس وفد مصر ، اقتناعاً منى بأن النتائج التى ستصل إليها اللجنة ستعرض على المؤتمر . وكان الشيخ يوسف يس ممثل المملكة العربية

السعودية في المؤتمر عضواً في اللجنة السرية كذلك . وقد أثار دهشة المؤتمر كله ذات مساء إذ تلى علينا بريقة لاسلكية تلقاها من الملك عبد العزيز آل سعود جاء فيها إن جلالتة يرى التزام سياسة الحذر ، وألا تغامر الدول العربية بأمر لا تنق بنتائجه . ترى أكانت اللجنة السياسية تبحث وسائل المقاومة الحربية ليهود فلسطين ؟ ذلك ما يبدو من بريقة الغاهل النجدي . على أن اللجنة السرية أنهت مأموريته وتقدم رئيسها فارس بك الخوري بمشروع قرار تقترحه اللجنة ، مؤداه أن تلجأ الدول العربية إلى هيئة الأمم المتحدة تطلب إليها تقرير عروبة فلسطين على أساس من أن هذا المطلب يتفق مع نصوص ميثاق الهيئة وأغراضها في المحافظة على السلام العالمي .

وافق المؤتمر على هذا القرار . أما ما عده من أعمال اللجنة السرية فلم يعرض على المؤتمر واعتبر سراً لا يطلع عليه إلا أعضاء اللجنة وأمين الجامعة عبد الرحمن عزام باشا . ولم أفكر في الوقوف على شيء من هذا السراقتناعاً مني بأن التفكير في أمور عسكرية سيلقى مقاومة من إنجلترا ، الدولة المنتدبة في فلسطين ، وأن الدول العربية خاضع أكثرها إلى النفوذ البريطاني ، فمن غير المعقول أن تفكر في مقاومة إنجلترا عسكرياً وهي تعلم أنها لا طاقة لها بهذه المقاومة من ناحية ولا فائدة ترجى من ورائها من ناحية أخرى .

وانفرط عقد المؤتمر وعدنا إلى مصر وعاد ممثلو الدول العربية الأخرى إلى دولهم ونحن ننتظر تطور الحوادث ، وكان هذا التطور سريعاً ؛ لأن الصهيونية بدأت تقاوم سلطان إنجلترا في فلسطين مقاومة جديده بعد أن انتهت الحرب العالمية في اليابان كما انتهت من قبل ذلك في أوروبا ، وبعد أن تبين أن إنجلترا غير قادرة على أن تحسم ما بين العرب واليهود من خلاف على الهجرة وعلى بيع الأراضي وعلى المشكلة الفلسطينية نفسها .

ورأت الحكومة البريطانية ، بعد إذ تبينت أن كل مجهود للتوفيق بين العرب واليهود غير مجد نفعاً ، أن تلجأ إلى هيئة الأمم المتحدة تستعين بها على حل هذه المسألة المعقدة . فهي لا تريد أن تغضب العرب ولا أن تغضب اليهود ، فإذا صدر قرار من هيئة الأمم المتحدة لا يرضاه أي الفريقين لم تكن سياستها في الشرق الأوسط معرضة لخصومة من جانب أي الفريقين .

وندبت الأمم المتحدة لجنة خاصة لبحث هذه المشكلة المعقدة واقترح الوسيلة العادلة لحلها ، وذلك بعد أن عقدت الجمعية العامة دورة خاصة سمعت فيها ممثلي الدول العربية ، والأمين العام لجامعة الدول العربية ، كما سمعت فيها مندوبين عن الصهيونيين . وفي هذه

الجمعية العامة اصطدمت النظريتان العربية والصهيونية اصطداماً ظاهراً . فقد أصر العرب وأصرت جامعة الدول العربية على أن تبقى فلسطين عربية مع التسامح مع من نزح إليها حتى يومئذ من المهاجرين اليهود لبقوا فيها دون غيرهم من المهاجرين الذين يمكن أن يقدموا بعد ذلك ، وأصر اليهود على تقسيم فلسطين وإقامة دولة صهيونية فيها هي دولة إسرائيل . ندبت الجمعية العامة لجنة لبحث هذه المشكلة واقترح الوسيلة العادلة لحلها . وانتقلت اللجنة إلى فلسطين وسمعت أقوال أولى الشأن ثم انتهت إلى اقتراح تقسيم الأرض المقدسة بين العرب واليهود . اقتناعاً منها بأن تعاونهما لا رجاء فيه ، ولأنها وجدت في نفسها ميلاً إلى اليهود لم تجد مثله إلى العرب . ووضعت اللجنة خريطة بهذا التقسيم لا يزال الناظر إليها يراها عجباً غاية العجب . فقد خصت اليهود بالمنطقة الساحلية عدا ميناء يافا ، فقد جعلتها للعرب لأنها رأتها بلداً عربياً إسلامياً صرفاً . ثم إنها جعلت لليهود كذلك جزءاً من شمال فلسطين لا يصله بمنطقة الساحل إلا ممر ضيق غاية الضيق ، ثم جعلت لهم (النقب) أو (النجب) الممتد جنوبى فلسطين ، والذي يفصل بين البلاد العربية فصلاً تاماً . مع هذا تركت للعرب جزءاً من المنطقة الساحلية هو قطاع غزة المتصل بمصر ، ولم تدع بين الجزء الساحلى الذى خصصته لليهود ومنطقة النقب غير ممر أشد ضيقاً من الممر الذى يصل الساحل بالجزء الشمالى . وقدمت اللجنة تقريرها على هذا النحو إلى الأمم المتحدة لتنظره في جمعيتها العامة التى تعقد في شهر سبتمبر وما بعده من سنة ١٩٤٧ وطلبت إليها إقرار هذا التقسيم . أسرع اليهود في إعلانهم قبول ما قرره اللجنة وطلبوا إقراره . أما العرب فتمسكوا بموقفهم الأول لم يتزحزحوا عنه وطلبوا بعروبة فلسطين وبأن تكون لأهلها الأصليين الذين أقاموا بها منذ فتحها العرب في القرن الأول الهجرى (الثامن الميلادى) .

كانت مصر قد احتكمت إلى مجلس الأمن في الخلاف القائم بينها وبين إنجلترا بعد أن قطع النقراشى باشا المفاوضات وقرّر مجلس الأمن أن ينظر شكوى مصر في صيف هذا العام ، عام ١٩٤٧ . وخاطبنى النقراشى باشا لأصعبه إلى مجلس الأمن فاعتذرت ولم أجب رغبته . فطلب إلى أن أذهب على رأس الوفد الذى يمثل مصر في اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة فاعتذرت كذلك ، ولكنه ألح وقال لى عشية سفره إلى مجلس الأمن إنه أبلغ جلالة الملك اختياره إياى ، وترك لى أن أعتذر لدى جلالتة إن شئت . ورأيت أن الاعتذار عن قبول رئاسة الوفد قد يسوء تأويله فقبلت وطلبت إلى وزارة الخارجية أن تمدنى بما لديها من وثائق تفيد دراستها في معالجة المسائل الواردة بجدول أعمال الهيئة وبخاصة

مسألة فلسطين . ولم تسعفى الوزارة بأية وثيقة إلا ليلة سفرى ، ولم تعطى تقرير اللجنة التى أشارت بتقسيم فلسطين .

وركبت البحر إلى نيويورك وألفت الجمعية العامة فى الجلسة الأولى لجنة خاصة لبحث مسألة فلسطين ، وذلك بعد أن ألقى مستر ترومان ، رئيس الولايات الأمريكية المتحدة خطاب الافتتاح وأعلن فيه أن الحكومة الأمريكية تنظر إلى مقترحات اللجنة التى أشارت بتقسيم فلسطين بعين التقدير والاعتبار . وقد كان لعبارة الرئيس ترومان هذه وقع أليم فى نفوس الوفود التى تمثل البلاد العربية . فقد قدرت أن اليهود قد بذلوا من الجهد لدى الحكومة الأمريكية ما أدى إلى هذه النتيجة ، وقدروا إلى ذلك أن كثيراً من دول أمريكا الجنوبية ستنضم إلى الولايات المتحدة ، ورأوا دقة الموقف الذى يواجهونه ، فاعترض خطاباًهم فى الجمعية العامة على تصريح الرئيس ترومان ، وذكروا أنه قصد به إلى التأثير فى جو الهيئة ، ونحى إليهم أن السوفيت قد يعاونونهم جرياً على سياستهم فى معارضة أمريكا معارضة مطردة فى كل موقف تتخذه ، وبنوا على هذا الظن آمالاً إلا تكن كبيرة فإنها على الأقل تبعث الرجاء فى ألا يحصل تقرير لجنة التقسيم على ثلثي الأصوات فيتأجل الموضوع سنة يخلق الله خلالها ما يشاء .

بدأ الصيونيون ينظمون دعايتهم فى صحف أمريكا وفى الجمعية العامة للأمم المتحدة . ولم يكن تنظيم هذه الدعاية عسيراً عليهم . فاليهود فى أمريكا يملكون كل أسباب الدعاية . هم أصحاب الصحف الكبرى ، وأصحاب محطات الإذاعة الأمريكية المختلفة ، وأصحاب دور السينما ، وهم المتحكمون فى سوق المال الأمريكية أكثر من تحكمهم فى سوق المال البريطانية . وهم إلى ذلك ذوو نفوذ ضخم فى الانتخابات لرئاسة الجمهورية الأمريكية . فهم الثلث من سكان ولاية نيويورك . وهذه الولاية الكبيرة من عدد الأصوات فى انتخابات الرئاسة ما يحسب كل مرشح حسابه . ولهذا قيل إن انحياز الرئيس ترومان إلى اليهود فى تقسيم فلسطين قد كان مرجعه إلى أن انتخابات الرئاسة كانت ستقع فى سنة ١٩٤٨ ، أى بعد عام أو أقل من نظر الجمعية العامة تقرير التقسيم ، وإنه أراد لذلك أن يكفل أصوات اليهود فى نيويورك بانحيازه إليهم فى مسألة فلسطين .

على أن مستر مارشال ، وزير الخارجية الأمريكية يومئذ ، أراد أن يقنع العرب بأن الحكومة الأمريكية لم تنته بعد إلى رأى فى تقسيم فلسطين ، وأن ما جاء على لسان الرئيس ترومان لا يزيد على أنه تقدير لعمل اللجنة التى بحثت الموضوع شهوراً متصلة ، وأن هذا

التقدير ليس معناه الموافقة على رأى اللجنة .

ولهذا الغرض دعانا إلى مأدبة غداء فى دارله بالريف القريب من ليك سكسس . وأظهر أنه يريد مناقشتنا فى الموضوع مناقشة خاصة تعاونه على تكوين رأيه . وقد حضر معنا من الساسة الأمريكان شخص أمريكى كان موضع ثقة مستر مارشال والمتكلم بلسانه . وفى أثناء تناولنا الطعام جعل الوزير يسأل الأمير فيصل آل سعود ونورى السعيد باشا وفارس الخورى بك وغيرهم رأيهم فى الموضوع فيذكرون له حججهم على عروبة فلسطين ، وجلست أنا صامتاً لا أتكلم ، وكان الشخص الأمريكى يناقش زملائنا العرب آراءهم . ثم إن مستر مارشال اتجه إلى الناحية التى كنت بها وسألنى رأى ، فقلت : أرجو أن تكون حجج زملائى قد أقنعت الوزير . على أننى أضيف إليها حجة لا أحسبها تفوته . فمنذ أعلنت حقوق الإنسان فى فرنسا وفى أمريكا وفى غيرها من الدول المتحضرة لم يدر بخلد إنسان أن تنشأ فى العالم دولة على أساس دينى ، فيقال دولة المسيحيين أو دولة المسلمين أو دولة اليهود . فإنشاء دولة بفلسطين على النحو الذى أقرته لجنة التقسيم معناه العود بالإنسانية إلى عهود التعصب الدينى وإلى عهود الحروب الصليبية ، والأمر أفدح خطراً إذا لم تجمع أبناء هذا الدين قومية أو عصبية ولم تربط بينهم ما نعرفه من مقومات الأمم . واليهود الذين هاجروا إلى فلسطين لا تربط بينهم أية صلة غير وحدة الدين ، أما ما خلا ذلك فهم مختلفون فيه كل الاختلاف ، مختلفون فى قوميتهم ، فمنهم اليهود الألمان ، واليهود البولونيون ، واليهود الروس ، وغيرهم وغيرهم ممن لا تعارف بينهم ولا آصرة تجمعهم ، مختلفون فى لغاتهم اختلافهم فى جنسهم ، مختلفون فى كل شئ إلا فى أنهم يهود ، ولا أحسب أمريكا ترضى أن تدفع العالم إلى الوراء فى أسباب الحضارة وتعيد فيه عهود التعصب الذمى الممقوت . خرجنا من هذا الاجتماع يسأل بعضنا بعضاً ما عسى أن يكون له من أثر . يقول البعض إن وزير الخارجية بدا عليه التردد مما يدل على أن أمريكا لم تتخذ موقفاً حاسماً فى الأمر ، ويقول البعض إنها بجمالة أراد بها وزير الخارجية الأمريكية أن يخفف من أثر ما قاله الرئيس ترومان ، وعدنا إلى ليك سكسس ونحن مدركون دقة الموقف تمام الإدراك .

زاد الموقف دقة بعد أيام إذ أعلنت روسيا السوفيتية موافقتها على تقرير لجنة التقسيم . عند ذلك اجتمعت وفود الدول العربية وتداولت فيما عسى أن تصنع . واتفق رأيها على ضرورة التمسك بعروبة فلسطين ورفض تقرير لجنة التقسيم والعمل على كسب الأنصار من دول أمريكا اللاتينية وغير أمريكا اللاتينية لتأييد فكرتها . وقد رأت منذ اللحظة الأولى أن موافقة

روسيا على تقرير لجنة التقسيم قد يخفف من تأييد أمريكا لهذا التقرير ، وهو قد يدعوها على الأقل إلى تخفيف ضغطها على الدول الأمريكية الأخرى لتسايرها في الموافقة على التقرير . ولم تكن هذه الوفود مخطئة في انتاج خطة مؤداها إقناع هذه الدول الأمريكية بأن موافقة روسيا على التقرير تنطوى على معانى لا يمكن أن تؤيد السلام في الشرق الأوسط بحال . فقد درجت روسيا ، منذ ألفت الأمم المتحدة على معارضة السياسة الأمريكية معارضة مضطردة وعلى الوقوف من هذه السياسة الأمريكية موقف الخصومة العنيفة . فموافقتها على تقرير لجنة التقسيم ، بعد أن تبينت موافقة أمريكا عليه ، لا بد ينطوى على أمر تضمه السياسة السوفيتية ، وبخاصة أن اليهود الذين هاجروا من ألمانيا ومن بولونيا ومن تشيكوسلوفاكيا بينهم عناصر شيوعية كثيرة يمكن أن تجعل من الدولة الجديدة التي يراد إنشاؤها نقطة ارتكاز في الشرق الأوسط تعاون روسيا إذا نشبت حرب عالمية ثالثة .

ولما كان الحديث حول هذه الحرب العالمية الثالثة مستقيضاً في ذلك الحين ، وكانت الصحف الأمريكية تتحدث عن هذه الحرب على أنها أمر واقع لا محالة ، بل كانت تحرض عليها وتدعو لها وتحاول إقناع الرأي العام الأمريكي بأن المصلحة في الإسراع إليها قبل أن تقوى روسيا وتستطيع المقاومة ، فقد لقيت حجتنا أذاناً سمعية في أوساط مختلفة ، بل لقد اقتنع بها ممثلو بعض الدول اللاتينية الأمريكية اقتناعاً ظاهراً لم يخفوه عنا .

وكنا نتوقع أن نجد حجتنا هذه أذاناً سمعية من جانب الوفد البريطاني والحكومة البريطانية . وكانت السياسة التي عرفت إلى يومئذ عن الحكومة البريطانية أنها لا توافق على حل للمسألة لا يرضاه العرب واليهود جميعاً . ولما كان موقف العرب واليهود من تقرير لجنة التقسيم ومن كل حل لمسألة فلسطين موقف خصومة صريحة ، فالعرب يريدون عروبة فلسطين ، واليهود يريدون تقسيم فلسطين وإنشاء دولة إسرائيل ، فقد كانت هذه السياسة التي عرفت إلى يومئذ عن إنجلترا سياسة سلبية بحتة ، معناها الظاهر الفرار من تحمل أية مسؤولية ، وإلقاء هذه المسؤولية على غيرها من الدول الكبرى ، وذلك حتى لا يقف العرب ولا يقف اليهود منها موقف الخصومة . فإذا استطعنا نحن ، ممثلي الدول العربية ، أن نقنعها بأن موقف روسيا وتأييدها تقرير لجنة التقسيم معناه إيجاد نقطة ارتكاز للشيوعية في الشرق الأوسط ، فقد يعدل بها ذلك عن موقفها السلبي ، وقد يؤدي بها إلى تأييدنا ، ولو كان هذا التأييد غير ظاهر بإقناع الدول التي تدور في فلكها كي تناصرنا وتؤيدنا في اللجنة الخاصة وفي الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة .

وثبت في نفوسنا الاعتقاد بأن حجتنا هذه سيكون لها وزنها عند الجانب البريطاني ما كان بين اليهود والإنجليز في فلسطين من خصومة سافرة جعلت اليهود يثورون على الحكم البريطاني ثورة صريحة ، وجعلت تشكيلاتهم ، العسكرية ، ومنها الهاجاناه وشترن ، تقاوم الأحكام التي يصدرها القضاة الإنجليز على اليهود في فلسطين ، وتهاجم السجون وتخرج المسجونين منها وتعرض بذلك لمقاومة القوات البريطانية المربطة في فلسطين ، وكنا نظن أن ما في هذه الثورة الجامحة من مساس بالكرامة البريطانية سيدفع الوفد البريطاني والحكومة البريطانية ليكون موقفهم أدنى لتأييد العرب ، فإن لم يكن هذا التأييد سافراً ، كان خفياً متصلاً بالدول التي يتألف منها (الكومنولث) البريطاني .

لكن السياسة البريطانية سلكت طريقاً اعتبرناه واعتبره غيرنا مفاجأة محيرة . فقد أعلن الوفد البريطاني في اللجنة الخاصة بموضوع فلسطين أن الحكومة البريطانية قررت إنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ، وأنها ستسحب كل قواتها من هناك في أمد أقصاه هذا التاريخ . ما معنى هذا ؟ وما عسى أن يترتب عليه من النتائج ؟ وكيف يمكن لعرب فلسطين أن يواجهوا الموقف يومئذ وقد جرت السياسة البريطانية في أثناء الحرب على نزع سلاحهم وإمداد التشكيلات اليهودية بالسلاح ؟

كان هذا الإعلان مفاجأة للوفود العربية لم توقعها . وقد أراد الوفد البريطاني معرفة مدى ما لهذه السياسة من أثر في نفس هذه الوفود ، فدعانا مستر هكتور ماكنيل وزير الدولة البريطاني ، ومستر كريتش جونز وزير المستعمرات البريطاني إلى مأدبة غداء بمطعم ليك سكسس . فلما اكمل اجتماعنا بدأ الأمير فيصل آل سعود الحديث قائلاً : ألا تشعر الحكومة البريطانية بأن عليها تبعة عن تطور الأحوال في فلسطين ، وأن عليها واجباً نحو العرب لا يتفق وهذا التخلي الذي أعلنته إلى لجنة الأمم المتحدة . وأجاب وزير المستعمرات بأن إنجلترا جرت سياستها على ألا تؤيد حلاً لا يقبله العرب واليهود على السواء ، ولما كانت المساعي التي بذلت للتقريب بين وجهتي نظر الفريقين قد فشلت جميعاً لم يكن لها بد من أن تتخلى عن تبعاتها في البلاد المقدسة وتدع العرب واليهود أنفسهم يواجهون الموقف ويعملون على حله .

وتدخل نوري باشا السعيد في الحديث قائلاً : إن إنشاء دولة صهيونية في فلسطين أمر غير مستطاع . ولن تبقى هذه الدولة خمسة عشر يوماً . فأجاب الأمير فيصل : أظنها

تستطيع ولديها من السلاح ما بقي من زمن الحرب ، أن تبقى ستين . وأجاب وزير المستعمرات البريطاني : لعلها تستطيع أن تبقى خمس سنوات .

واستمر الحديث على هذا النحو من التنبؤ بمقدرة دولة صهيونية تنشأ في فلسطين على البقاء إلى أن فرغنا من طعام الغداء ، وإلى أن قاربت الساعة الثالثة وحان لنا أن ننصرف ليشترك كل منا في اللجنة التي يساهم في عضويتها .

لم تكن الدول العربية وحدها هي المعنية بمسألة فلسطين وبقرار لجنة التقسيم ، بل شاركتها بعض الدول هذه العناية . وكانت الباكستان في مقدمة هذه الدول . وكان ظفر الله خان وزير خارجية الباكستان ورئيس وفد لها لدى الأمم المتحدة من أشد الناس عناية وأكثرهم درساً وأقواهم في الدفاع عن عروبة فلسطين ، وقد عني عناية خاصة بدراسة تقرير لجنة التقسيم وبتفصيل ما ورد فيه من الآراء وما انتهى إليه من النتائج .

والواقع أن التقرير وما أشار به من التقسيم كان يبين الظلم ، وحسب الإنسان أن يطلع على خريطة التقسيم ليرى هذا الظلم جلياً واضحاً ؛ فقد جعل التقرير معظم الشاطئ الفلسطيني للبحر الأبيض المتوسط من حظ اليهود ، فيما خلا مدينة يافا التي استقيت للعرب بحجة أن أهلها جميعاً من العرب المسلمين ، ومرفأً حيفا الذي استبقى مرفأً حرّاً لاستقبال أنابيب البترول من العراق ومن غير العراق ، وفيما خلا الجزء الجنوبي المتاخم لمصر فيما بين غزة والعريش .

ولو أن الأمر اقتصر على هذا لجاز الدفاع عنه على ما فيه من ظلم . لكن التقرير جعل منطقة الجليل الغربي المتاخم للبنان عربياً ، والجليل الشرقي المتاخم لسوريا يهودياً ، وجعل منطقة النقب أو « النجب » لليهود ، ووصل بين هاتين المنطقتين وبين الشاطئ الذي جعله يهودياً وصلاً وهمياً رأس مثلث لا يعرف الإنسان معه كيف تتصل المناطق اليهودية بعضها ببعض ، ولا المناطق العربية بعضها ببعض . هذا فضلاً عن أن إعطاء منطقة النقب لليهود على امتداد يصل إلى العقبة معناه فصل البلاد العربية بعضها عن بعض فصلاً تاماً . فهذه المنطقة الفلسطينية هي التي كانت تصل بين مصر وشرق الأردن . فأعطائها لإسرائيل ، واتصالها بمنطقة الشاطئ المعطاة لإسرائيل برأس المثلث الذي أشرنا إليه ، معناه فصل مصر فصلاً تاماً عن سائر البلاد العربية . أو يستطيع أحد مع هذا أن يقول إن تقرير لجنة التقسيم لم يكن تقريراً ظالماً ، وأن تنفيذه سيكون مثار خصومات في الشرق الأوسط لا يمكن أن تهدأ وقد قلب الشرق الأوسط إلى بلقان ثان تلتهب فيه الشرارة التي توقد نار حرب ثالثة ،

كما أوقدت سراجيفونار الحرب العالمية الأولى .

استظهر ظفر الله خان وزير خارجية الباكستان هذا كله أمام لجنة فلسطين وأضاف إليه من الاعتبارات ما جعل كثيرين يشكون أعظم الشك في عدالة تقرير اللجنة التي اقترحت هذا التقسيم وفي صوابه ، وقد بذلت الوفود العربية مثل هذا الجهد أمام اللجنة ، فتحدث من رجالها كثيرون اتخذ كل منهم من الموضوع موقفاً خاصاً . ورأى اليهود ما تركه مجهود ظفر الله خان وجهود المتكلمين من الوفود العربية فضاعفوا من نشاطهم في نيويورك وفي الصحافة الأمريكية حتى لم يكونوا يعرفون مللاً أو يذوقون للراحة طعماً . بل لقد جاءوا بمسٹر وايزمان نفسه إلى اللجنة يحدّثها ، فإذا هو رجل بلغت منه السنون فحطمت كيانه وأضعفت بيانه . لكنهم أرادوا أن يجعلوا من اسمه تذكرة للإنجليز ولغير الإنجليز ممن يقدرون لهذا الرجل مواقفه في صفهم في أثناء الحرب العالمية الأولى ، وأن يؤثروا بذلك في جمهرة الوفود التي تمثل الأمم المختلفة .

ولم يقف نشاط اليهود في حدود نيويورك وصحافتها . ذهبت يوماً إلى واشنطن ونزلت فندق (شورهام) فإذا بي أرى جموعاً غفيرة ترحم ردهاته ، فسألت : من هؤلاء ، فقبل لي إنهم اليهود يعقدون بالعاصمة الأمريكية مؤتمراً للدعاية لدولتهم في فلسطين . وقد استمر هذا المؤتمر ثلاثة أيام جمعت في أثنائها مبالغ ضخمة لاتفاقها للدعاية للدولة اليهودية وإنشائها في فلسطين . ولم يكن مؤتمر واشنطن هذا إلا واحداً من اجتماعات متوالية تعقد في البلاد الكبيرة التي يكثر فيها اليهود . وكانت تنهى بجمع الأموال للدعاية ولغة مشابهة من الوسائل التي يتذرع بها أولئك اليهود المعنيون بإقامة دولة إسرائيل في الشرق الأوسط .

وحفز نشاط اليهود وفود البلاد العربية لمضاعفة نشاطها . وكان من ذلك أن كتبت بعض رجالها من أبناء لبنان السفر إلى أمريكا الجنوبية حيث توجد جاليات لبنانية كبيرة للاتصال بها حتى تؤثر في حكومات تلك البلاد بما يدفعها لتبعث إلى وفودها في توريد الوفود العربية في موقفها ، هذا مع ما كنا نعلمه من أثر الولايات المتحدة في أمريكا الجنوبية كلها . لكن الوفود العربية لم ترد أن تترك وسيلة من الوسائل التي تكفل لها الظفر إلا لجأت إليها وبذلت في سبيلها كل جهد يستطيع بذله .

كانت المعركة حامية الرطيس إذن . بالغة غاية الشدة . وكان موقف الدول العربية نوبياً لأنه موقف عادل ، ولكن القوة التي كانت تواجهه كانت ذات بأس شديد لأنها جمعت أمريكا وروسيا اللتين كانتا تزددان صراحة في تأييد قرار التقسيم كلما تقدم الزمن ،

ثم كانت دول « الكومنولث » البريطانى تظاهر أمريكا مظهرة لم تخف على الدول العربية ، حتى لقد صارع أحد أعضاء الوفد المصرى مستشاراً فى الوفد البريطانى بأن موقف إنجلترا فى هذا الموضوع ليس موقفاً سليماً ، لأن سكوتها عن التصريح برأيها لم يمنع دول « الكومنولث » الأربعة الكبرى ، أستراليا ، ونيوزيلندا ، وكندا ، وجنوب أفريقيا من أن تبدى تحيزها للصهيونية ، وكان رد الإنجليزى على هذا الاعتراض أنه يدل على أن دول « الكومنولث » مستقلة حقيقة ، وأنها ليست ملزمة بمتابعة رأى إنجلترا ، ولاحظت أنا فى ابتسام : أما كان انقسامها إلى فريقين ، فريق يؤيد اليهود ، وفريق يؤيد العرب أقوى دلالة على استقلالها .

كانت الوفود العربية تجتمع بفندق « ولدورف استوريا » ، بصالون الأمير فيصل أكثر من مرة فى الأسبوع . ولم أكن مواظباً على حضور اجتماعاتها لأننا جعلنا مسألة فلسطين من اختصاص محمود بك فوزى وعبد المنعم بك مصطفى ، فكانا يحضران كل هذه الاجتماعات نيابة عن الوفد المصرى . أما أنا فكنت أحضرها حين أنه إلى أن الحديث فيها سيتناول أمراً له أهمية خاصة . وكثيراً ما كانت تطول هذه الاجتماعات إلى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل وأحسبني قد استوفيت حظى من السهر الطويل حين كنت رئيساً لتحرير السياسة ، فأنا لذلك أؤثر النوم المبكر منذ سنين .

شعرت الوفود العربية ، على الرغم من الجهود الضخمة التى تبذلها ، بأنها قد لا تصل إلى غايتها ، فلا يؤيدها ثلث أعضاء الجمعية العامة تأييداً يسقط قرار التقسيم ، ولهذا فكرت فى أن تبذل مجهوداً آخر لتأجيل مسألة فلسطين إلى الدورة المقبلة ، لكن الظفر بالتأجيل لم يكن أقل مشقة من إسقاط مشروع التقسيم . فالتأجيل يقتضى توافر أغلبية نسبية من مجموع الحاضرين ، أى نصف عدد الأصوات . فإذا لم تكن واثقين من الثلث كنا فى ريب من أن نحصل على النصف للتأجيل إذ كانت الدول الكبرى حريصة على نظر الموضوع والفصل فيه . وقد تبينت أنا يوماً تعذر التأجيل حين قابلت مستر تريجنى لى ، سكرتير هيئة الأمم المتحدة ، فذكر لى فى صراحة أن الدورة لا تنتهى قبل البت فى موضوع فلسطين بقرار تصدره الجمعية فى أمر التقسيم . هنالك أيقنت أن الأمر فى التأجيل أصعب منه فى نظر الموضوع ، ونقلت ما سمعت إلى زملائى رجال الوفود العربية ، وطلبت إليهم أن يتدبروا الأمر من ناحية الظفر بالثلث لإسقاط التقسيم إذا كان ذلك ممكناً .

وإنتى لأتابع أعمال اللجنة السياسية ذات يوم إذ قال لى جارى ، رئيس وفد الأكوادور :

ألا ترون أن تقترح الوفود العربية حلاً عملياً غير التقسيم يمكن أن تجتمع عنده الآراء فوقوكم موقفاً سلبياً في هذا الموضوع ليس من شأنه أن يجعل مهمتكم يسيرة . وسألته : وهل ترى حلاً عملياً يمكن اقتراحه وتجتمع الكلمة عنده . قال : نعم نظام le Cantonnement على نحو ما هو حادث في سويسرا . قلت : سأفكر في الموضوع . وانتهى حديثي معه عند هذا .

ونقلت ما ذكره لي إلى إخواننا أعضاء الوفود العربية . ورأى بعضهم الاقتراح معقولاً . ورآه آخرون خروجاً عن التفويض الذي لديهم من حكوماتهم مع اعترافهم بدقة الموقف عند ذلك اقترح بعضهم على السيد جمال الحسيني ، وكان يمثل فلسطين ، وقد دعت اللجنة الخاصة للتكلم باسم العرب كما تكلم وايزمان وغير وايزمان باسم اليهود - اقترح عليه بعض أعضاء الوفود العربية أن يسافر بالطائرة إلى فلسطين أو إلى بيروت وأن يقابل عمه السيد أمين الحسيني حيث يكون وأن يطالعه بحقيقة الموقف ودقته كما نراه ويعرض عليه فكرة النظام الفيدرالي وأن تقترحها الوفود العربية على أساس أن فلسطين لا تقبل القسمة ، فأبى جمال بك قائلاً : إن سفره لعرض مثل هذا الاقتراح يعرضه لأن يتهم بتهمة الخيانة وقد يعرضه للقتل .

والواقع أننا كنا في حيرة من موقفنا بين التفاوض والتشاور ، وقد بلغت الحيرة بالكثيرين في بعض الأحيان أن كانوا يخافون أشياء لا محل للخوف منها . كان مسر إيفات وزير خارجية أستراليا هو رئيس اللجنة الخاصة بفلسطين ، وكان رئيساً للجنة فرعية مهمتها التوفيق بين اللجنتين الفرعيتين الآخرين لإيجاد حل تلتقي عنده رغبات العرب واليهود . ولم يبذل الرجل جهداً يذكر ، بل لعله لم يبذل أى جهد في سبيل هذا التوفيق الذي عهد إليه أن يقوم به . وإنني لقي لك سكس إذ قابلني الأمير فيصل وطلب إلي أن أحضر اجتماع الوفود العربية ذلك المساء عنده في تمام الساعة السابعة مساء . قلت : ولكنني مدعو للعشاء الساعة الثامنة والنصف قال : لك على أن نعرض الموضوع الهام الذي يريد إخواننا التحدث فيه لأول ما تجتمع فإذا فرغت منه فلك أن تتصرف كما تشاء . واجتمعنا وسألنا عن الموضوع الهام ما هو فعلمت أنه بلغهم أن مسر إيفات سيدعو لجنة فلسطين لتجتمع صبح الغد وأنهم يريدون أن يتداولوا فيها يقولون في أثناء الاجتماع . ولما كانت اللجنتان الفرعيتان لم تقدم أيهما تقريرها سألت : على أى أساس سيتناقش الحاضرون إذا ما دام التقريران لم يقدم أيهما . قال قائل ربما أبلغا إلينا منتصف الليل . قلت وهل يعقل أن يبلغ تقرير في موضوع

خطير كهذا الموضوع منتصف الليل ، ثم يناقش في الصباح ؟ وإذا حدث أن أبلغ التقريران وطلب أى عضو التأجيل لدرس التقرير ثمان وأربعين ساعة ، أفيستطيع أحد رفض طلبه ؟ قيل : لا . قلت : إذن فلنتنظر حتى يصل التقريران ثم نرتب خطتنا بعد ذلك . وتأجل نظر هذا الموضوع (الهام) ولم تعقد اللجنة في الصباح ولم تعقد حتى قدمت اللجنتان تقريريهما وأتيحت الفرصة لدراستهما . إنما هو الوهم الذى جعل احتمالاً كهذا الاحتمال ممكناً ، وهو في نظر العقل غير ممكن .

وإنما أدخل هذا الوهم في روع البلاد العربية اقتناعها بأنها على حق ، وشعورها مع ذلك بأن الدول الكبرى تخالف هذا الحق وهي تراه واضحاً تمام الوضوح . وتحالفه وهي تعلم أن فلسطين لا يمكن أن تتسع للعرب واليهود معاً ، وأنها لا يمكن أن تستوعب من المهاجرين اليهود أكثر مما استوعبت . وتحالفه وهي تعلم أن إقامة دولة في العهد الحاضر على أساس من العقيدة الدينية برغم اختلاف الجنس والمنشأ واللغة أمر غير معقول . تحالفه وهي قادرة إن شاءت أن تجد لليهود المضطهدين في أوروبا ، وليهود العالم أجمع مكاناً يتسع لهم في أستراليا ، أو في أفريقيا الاستوائية ، أو في أمريكا الشمالية حيث الأراضي الفضاء وموارد الطبيعة البكر تتسع للملايين كثيرة لا تتسع فلسطين لعشر معشارها . تحالفه وهي تعلم أن دعوى اليهود أنهم أصحاب فلسطين منذ ألى سنة . وأنهم شردوا منها دعوى لا تقوم على أساس . لأن كثرة يهود فلسطين تنصروا في عهد الرومان ثم أسلموا في عصر العرب ولأن كثيرين من يهود العالم يرجعون إلى أصول لا تمت إلى بني إسرائيل الذين استعمروا إسرائيل قبل المسيحية بنسب . تحالفه وهي تعلم أن قيام دولة يهودية في الشرق الأوسط لن يعاون على إقرار السلام في العالم . لكنها تحالفه مع ذلك ومع غير ذلك من الاعتبارات الكثيرة ، لأسباب لاتمت للعدل ولا للسياسة التزييه بصله أو بنسب . تحالفه لأن لليهود سلطاناً في انتخابات رئاسة الجمهورية الأمريكية ، وكانت هذه الانتخابات ستقع في سنة ١٩٤٨ ، أى بعد شهر من انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة ، يوجب على حكومة الولايات المتحدة وعلى رأسها مستر ترومان أن تمألى اليهود ولو لم يكونوا على حق . تحالفه لأنها تريد أن يكون لها مركز استراتيجى تعتمد عليه في الشرق الأوسط ، وهي تعلم أن من اليهود الذين هاجروا أو يهاجرون إلى فلسطين عناصر شيوعية كثيرة . تحالفه لأن إنجلترا وعدت بإنشاء وطن قومى لليهود في فلسطين ، وكانت تظن يوم أنشأته أن اليهود لن يقاوموها ، فلما قاوموها وأخرجوها لاذت بالصمت وتركت دول « الكومنولث » ، نصوت في الجانب الذى نصوت فيه أمريكا وروسيا . والحجة الوحيدة التى كان يتمسك

بها مؤيدو التقسيم أن وجود اليهود في فلسطين أصبح أمراً واقعاً تقره وثائق دولية من عهد عصبة الأمم فلا سبيل إلى نقض هذه الوثائق . وكأن تقسيم بولونيا لم تقره وثيقة دولية قبل الحرب العالمية الأولى ، ومع ذلك اعتبر هذا التقسيم لبولونيا جريمة دولية منكراً ، وحرصت إنجلترا والدول المنتصرة في الحرب الأولى على أن تعيد لبولونيا وحدتها لأنها حق وعدل . فلا ضير إذن من أن ترتكب جريمة دولية أخرى بتقسيم فلسطين ، فإذا استطاع بعد ذلك قادر على إعادة وحدة فلسطين بحرب أو بغير حرب فليعدها ، وهو واجد يومئذ من سند المنطق الدولي ما شاء الله من حجج وأسانيد .

هل استنفدت الوفود العربية كل ما تستطيع من وسائل تمكئها من* الظفر بثلاث الأصوات في الجمعية العامة حتى يسقط قرار التقسيم ؟ لقد كنا نعلم عن يقين أن شعب الولايات المتحدة لا يؤيد حكومته ولا يعارضها في هذا الموضوع فيما وراء حدود ولاية نيويورك . ولقد قابلني صحفي أمريكي في أبهاء فلاشينج ميدوز ، حيث تعقد الجمعية العامة اجتماعاتها ، وأخبرني أن الولايات البعيدة بعض الشيء عن نيويورك لا تعنى بمسألة فلسطين في قليل ولا كثير ، وأنها لا تقرأ صحف نيويورك بل تقرأ صحفها هي ، وأن اليهود في أمريكا لا يتمتعون من العطف بأكثر مما يتمتعون به في دول أوربا ، وإنما شوكتهم وسلطانهم في العاصمة « واشنطن » وفي نيويورك حيث يملكون الصحف الكبرى والمصارف الكبرى ومحطات الإذاعة . أما وفي أمريكا عدد عظيم من أبناء الشعوب العربية ، ومن فلسطين نفسها ، ألا يستطيع هؤلاء أن يقوموا بنشاط يقاومون به الموجة اليهودية ، لعل في ذلك ما يسكن ولو بعض الشيء من حدة المظاهرة التي يقوم بها اليهود ويحماون بها السلطات الرسمية الأمريكية على مناصرتهم ؟ !

فكر بعضهم في هذا ، فدعا الأمريكيين الذين يمتون بأصولهم إلى بلد عربي إلى وليمة كبرى في فندق بنسلفانيا ، وفيه صالة تتسع لبضعة ألوف يتناولون فيها طعام العشاء . دعوا إلى وليمة عشاء حضرها ألوف وجلس ممثلو الدول العربية في صدر المكان على منصة الشرف ، وجلس بينهم وكيل الخارجية الأمريكية ، فلما فرغنا من تناول طعام العشاء بدأ الخطاب يتكلمون . وتكلم وكيل الخارجية مدافعاً عن سياسة أمريكا في صراحة لم نكن نظن أنه يواجه بها هذه الألوف من أبناء العرب . وتداول أبناء الدول العربية الحديث مؤيدين وجهة نظرهم بقوة كل القوة ، وتكلمت أنا باللغة العربية ، فلما فرغنا من تناول الطعام وخرجنا أدهشني أن هؤلاء العرب الأمريكيين لم يبق منهم من يعرف اللغة العربية ، بل اندمجوا في الكتلة الأمريكية اندماجاً تاماً ، حتى لقد سمعت أحدهم يقول لأصحابه ما معناه : كم أسفت لأنني

لم أفهم ما قاله المصري . لقد كان يتكلم بحماسة شديدة تأثرنا بها جميعاً ، ولو أننا فهمناه لشاركناه أغلب الرأى فى اتجاهه .

على أن الخطب الكثيرة الأخرى التى ألقاها ممثلو العرب باللغة الإنجليزية قد أقيمت هؤلاء الأمريكان من أصل عربى بأن الاتجاه إلى تقسيم فلسطين اتجاه ظالم ، وفتحت أعينهم على ما نبه إليه هؤلاء الخطباء العرب من اتجاه السياسة الصهيونية إلى التوسع حتى تمتد دولتهم من الفرات إلى النيل ، لكنهم لم يكونوا يملكون أن يصنعوا شيئاً من مثل ما يصنعه اليهود الأمريكيون . فلم تكن للعرب سياسة كالسياسة الصهيونية تقرر منذ عشرات السنين ، فالعرب يعملون لتنفيذها بصبر ومثابرة كصبر اليهود ومثابرتهم . ولم تؤيد دولة قوية واحدة سياسة العرب كما أيدت الولايات المتحدة وأيدت روسيا سياسة الصهيونيين . لهذا لم يكن لهذه الحفلة الأمريكية العربية من الصدى ما تخطى حدود فندق بنسلفانيا إلا قليلاً . ولهذا عدنا نفكر فى كسب الأنصار من أعضاء الأمم المتحدة لعلنا نظفر بالثلث فيسقط قرار التقسيم .

وقد اقتنعنا قبل جلسة الجمعية العامة التى نظر فيها الموضوع بأننا ظفرنا بهذا الثلث ، وبأن الموضوع سيفصل فيه بما نعتقده الحق والعدل . وكـم سرنا أن علمنا ليلة انعقاد الجمعية العامة أن الجنرال رومولو رئيس وفد الفيليبين سيخطب فى الجمعية العامة لمصلحة العرب . وكـم سرنا أن ممثلى بعض الدول الصغيرة غير الخاضعة للتنفيذ الأمريكى المباشر ستصوت فى صفنا . وكـم سرنا أن بعض الدول الخاضعة للتنفيذ الأمريكى والتى كانت متجهة إلى تأييد التقسيم ستغيب عن جلسة التصويت بعد أن اقتنعت بأن إقرار التقسيم سيؤدى إلى اضطراب فى الشرق الأوسط ليس من شأنه أن يقر السلام العالمى ، وبأن إقرار التقسيم سيعرض اليهود فى العالم العربى والعالم الإسلامى ، وعددهم يزيد كثيراً على المليون إلى ألوان من الاضطهاد لا تنجيم إقامة الدولة الجديدة منها . وكذلك بقينا ننتظر انعقاد الجمعية العامة ولدينا من الأمل فى سقوط قرار التقسيم ما بعث إلى نفوسنا بعض الطمأنينة .

وتحدد يوم ٢٧ نوفمبر جلسة الجمعية العامة التى تنظر فيها مسألة فلسطين . وكان الرأى السائد أن تؤخذ الأصوات فى جلسة الصباح ، أو فى جلسة بعد الظهر على الأكثر . وكانت جلسات هذا الدور من أدوار الجمعية العامة للأمم المتحدة قد طالبت ثلاثة أشهر . لهذا قرر كثيرون السفر على الباخرة البريطانية (كوين مارى) التى تبحر نيويورك بعد الظهر من يوم ٢٧ نوفمبر وحجزوا أماكنهم عليها . وكذلك فعلت . وحضرت فى صباح ذلك اليوم

جلسة الجمعية العامة واستمعت إلى الجنرال رومولو يؤيد سياسة العرب . وسافرت بعد الظهر مع الذين سافروا على « كوين مارى » ومن بينهم رئيس وفد السوفيت ، مستر فيشنسكى ، ورئيس وفد لبنان الأستاذ شارل مالك ، والسير شو كروس النائب العام البريطاني ، وكثيرين غيرهم . وأقمنا ننتظر أن تنقل إلينا إذاعة الباخرة أنباء ماحدث في فلسطين ميدوز . وعلمت في الصباح أن الجلسة تأجلت إلى الغد . ماذا حدث ؟ لم يكن أحد منا يتوقع هذا التأجيل . وفي مساء الغد علمنا أنها تأجلت إلى اليوم التالى . ثم صدر القرار فى هذا اليوم الثالث وأذيع أن الجمعية العامة أقرت تقرير لجنة التقسيم . وعلى ذلك أصبح للدولة الصهيونية أن تقوم باسم دولة إسرائيل تنفيذاً لهذا القرار .

كان الأستاذ شارل مالك يتلقى على الباخرة تليفونات خاصة من نيويورك وقد أخبرنا أن محدثيه ذكروا له أنه على إثر إلقاء الجنرال رومولو خطابه صباح يوم ٢٧ نوفمبر اتصل البيت الأبيض من واشنطن برياسة جمهورية الفيليبين وذكرها بأن الولايات المتحدة اعترفت باستقلال الفيليبين منذ سنوات قليلة ، وأنها لم تكن تنتظر أن يكون جواب النييبين عن هذا الاعتراف باستقلالها أن تعارض سياسة الولايات المتحدة فى مسألة تعيرها هذه الولايات أهمية كبرى ، وأن الرئيس ترومان يعتبر مثل هذا الموقف غير متفق وما يجب بينه وبين الفيليبين من مودة ، وطلب إلى رئيس الجمهورية أن تصدر حكومة الفيليبين إلى وفدها فى الأمم المتحدة التعليمات بأن يصوت مع قرار التقسيم ، وكذلك كان . وقد علمنا كذلك أن غير واحد من ممثلى الأمم الصغيرة التى وعدتنا بالتصويت ضد قرار التقسيم لم يحضر ، وأن الإشاعات تضاربت فى السبب الذى أدى إلى عدم حضوره ، وأن بعض الأقوال يذهب إلى أن البوليس الأمريكى منعه بحجة أو بأخرى من الذهاب إلى مقر الجمعية العامة . مع هذا لم ينل قرار التقسيم ثلثي أصوات الحاضرين ، ولم يبلغ الرافضون للتقسيم ثلث الحاضرين كذلك ، لأن عدداً من الدول امتنعت عن إعطاء أصواتها . ولما كان الذين صوتوا فى مصلحة التقسيم يزيدون على ضعف الذين صوتوا ضده فقد اعتبر هذا تصويتاً فى مصلحة قرار التقسيم كما أقرته لجنة الأمم المتحدة ، وأعلن ذلك فى الجمعية العامة ، وأذيع فى أرجاء العالم جميعاً .

اعتبر ذلك تصويتاً فى مصلحة التقسيم مع أنه لم يجمع أغلبية الثلثين للأصوات التى أعطيت . وقد كان مثل هذا الموضوع محل بحث من قبل غير مرة ، فاختلف الرأى فيه . قيل مرة إن الموضوع لا يجوز اعتباره حائزاً أغلبية الثلثين إلا إذا كان الذين صوتوا معه يمثلون ثلثي الحاضرين أياً كانت الأصوات الأخرى ، سواء أكانت رفضاً أم امتناعاً . وقيل فى

التدليل على ذلك إن النص في ميثاق الأمم المتحدة على أغلبية الثلثين معناه ثلثي الحاضرين جميعاً ، فلو أخذ بغير ذلك وامتنع عدد كبير عن التصويت ثم قبل المشروع عدد يزيد على ضعف الذين رفضوه ، وكان هذا العدد دون نصف الحاضرين ، لكان في ذلك تخريباً غير مقبول للنص الوارد في ميثاق الأمم المتحدة . وقيل مرة أخرى إن الممتنعين يعتبرون في حكم غير الحاضرين ، وعلى هذا يكنى أن يزيد القابلون على ضعفي الراضين ليكون المشروع مقبولا . وقيل في التدليل على ذلك إن الأخذ بهذا الرأي هو وحده الذي يسير بأعمال الأمم المتحدة سيراً إيجابياً . فأما إذا لم يؤخذ به فأغلب الظن ألا يحصل مشروع قرار على الأغلبية وتعد القرارات كلها مرفوضة . وفي هذا تعطيل لعمل الجمعية العمومية غير مستساغ .

لا أريد أن أؤيد أى الرأيين . ولكننى أشعر بأن الذين يمتنعون عن التصويت لا يمكن تفسير امتناعهم بأنه قبول أو رفض لما هو معروض عليهم ، فأقل ما يجب في هذه الحال أن يؤجل الموضوع المطروح للرأى إلى دورة مقبلة عادية أو غير عادية حتى تتكون للقبول الأغلبية التى يتطلبها الميثاق من مجموع أصوات الحاضرين عند أخذ الرأى .

عادت وفود الدول العربية إلى بلادها وقد أيقنت أن الحق والعدل ألفاظ لا مدلول لها في قاموس السياسة . وأن الدول صاحبة القوى المادية عسكرياً واقتصادياً هى صاحبة الكلمة النافذة ، وأن التفكير لذلك في عالم أفضل ، أو في سلام عالمى دائم لا يعدو أن يكون ضرباً من أمانى الخيال ، وأن العالم الإنسانى الذى تقدم في العلم وسلطانه على الطبيعة لا يزال هو هو ، توجهه سلائق الحيوانية التى توجه السباع وسائر المفترسات غير الناطقة ، وأن عليهم لذلك أن يفكروا كيف يقاومون قرار الأمم المتحدة بتسليم فلسطين بالوسائل التى لجأت إليها الأمم الكبرى في الضغط على الأمم الصغيرة لاستصدار هذا القرار .

بذلك انتقل التفكير من ممثلى الدول العربية لدى الأمم المتحدة إلى الهيئات التنفيذية في هذه الدول وإلى جامعة الدول العربية ، ولهذا لم يبق لى وأنا رئيس مجلس الشيوخ أن أتعرض لشيء من الأمر إلا أن يقتضى تصرف الحكومة في شأنه أن تلجأ إلى البرلمان . ومن ثم لم تكن لدى معلومات مباشرة أدونها في هذه المذكرات ، وإنما أكتفى بما وقفت عليه في الصحف أو من الأحاديث الخاصة التى جرت بعد ذلك بينى وبين من كانوا يتولون هذه الأمور . وكان الأمر كذلك بخاصة لأن مجلس الدول العربية أحال كل ما يتصل بفلسطين وعروبته إلى اللجنة السياسية فيها . واللجنة السياسية تتألف من وزراء الخارجية أو من رؤساء الوزراء . وعلى ذلك بقى سائر أعضاء مجلس الجامعة - وأنا منهم - بمنزلة عما يعجرى في

هذه اللجنة السياسية ، لا يشتركون في تفكير ولا في مناقشة ولا في قرار ، ولا يعرفون من أمر ما يحدث إلا ما يصلهم عن طريق الأحاديث الخاصة أو ما تنشره الصحف من أنباء اللجنة وقراراتها .

كانت الحكومات العربية ترى أن القوة وحدها هي السبيل لا سبيل غيرها لمنع قيام دولة صهيونية في فلسطين ، ولكن أتراها تتدخل بقواتها المسلحة حتى لا ينفذ قرار الأمم المتحدة؟ كان اتجاهها بادئ الرأي إلى أن ذلك لا مصلحة فيه ، ومن شأنه أن يدفع هذه الأمم المتحدة لتري في تصرفها خروجاً على قرار الهيئة لا يتفق وعضويتها فيها . ولهذا اتجه التفكير في اجتماع للجنة السياسية عقد ببيروت إلى تأليف قوات عرقية من أهل فلسطين ومن المتطوعين من أهل الدول العربية المختلفة . وأن تمدهم هذه الدول بالسلح وتسمح لضباط من جيوشها أن يستقيلوا من هذه الجيوش وأن يتولوا قيادة هؤلاء المتطوعين . وقد بدأ تنفيذ هذه السياسة بالفعل من قبل يوم ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ، وهو اليوم الذي حددته إنجلترا لانسحاب آخر فوج من جنودها من الأراضي المقدسة التي كانت تحت انتدابها .

وكان النقراشي باشا رئيس الوزارة المصرية من أشد ممثلي الدول العربية حماسة لعدم اشتراك القوات الرسمية لهذه الدول في القتال . ولم تكن حجته في ذلك تقف عند إشفاقه من الأمم المتحدة وخروج مصر على قرارها ، بل كان يرى أنه لا يجوز أن تدفع مصر جيشها إلى فلسطين فتكون القوات البريطانية المربطة على قناة السويس حائلاً بينه وبين أرض الوطن . وكان في طبيعة النقراشي باشا ، إذا قامت بنفسه مثل هذه الحجة ألا يترشح عنها قيد شعرة . وما كان للدول العربية الأخرى أن تخالف مصر عن هذا القرار وهي تعلم أن مصر أكثرها عدداً وأوفرها مالا ، وأنها الدولة التي تتاخم فلسطين ، وتتاخم الحدود الغربية التي فرضها قرار التقسيم للدولة الصهيونية ، وأنها ستحمل أوفر عبء في هذه الحرب إذا قدر للدول العربية أن تخوضها .

وبقى هذا القرار محترماً وبقيت الدول العربية إلى يوم ١١ مايو سنة ١٩٤٨ مقتنعة بأن قوات المتطوعين كافية لمنع تنفيذ قرار التقسيم . وفي هذه الأثناء كان المتطوعون يسافرون من مصر ومن سائر البلاد العربية إلى بلد المسجد الأقصى ، تدفعها أكثر الأمر عاطفة دينية مشبوبة . وهذه العاطفة هي التي أدت بكثير من الإخوان المسلمين لينضموا إلى صفوف هؤلاء المتطوعين ، وليعاونوا الفلسطينيين للدفاع عن وطنهم .

وإنني لجالس بمكتبتي في الصباح من يوم ١٢ مايو إذ أقبل النقراشي باشا وطلب إلى

أن أحجب بابي وألا أَدع أحداً يدخل علينا . فلما خلا إلى ذكر أنه يريد أن أعقد جلسة سرية لتعرض الحكومة على المجلس قرارها دخول القوات المصرية إلى فلسطين لقتال اليهود . وتولتني الدهشة فسألته : وهل الدول العربية كلها متفقة على هذا ؟ وأجابني نعم . قلت : وهل لدى جيشنا من العتاد الحربي ما يكفي حرب الميدان لمدة ثلاثة أشهر على الأقل ؟ وأجاب نعم وأكثر من ثلاثة أشهر . قلت : وما عسى أن يكون موقف إنجلترا من هذا الأمر ؟ وهل اتفقت معها على خطة ؟ وأجاب : إنجلترا لا تعارض ، وأنا مطمئن لها ، وإن كنت لا أخفي عليك أنها قادرة إذا رأت ، أن تقف منا مثل موقفها في نفايرن .

ورأيت الرجل مصمماً على الأمر كل التصميم ، وقلت : إذن فليطلب أحد أعضاء الحكومة في المجلس الجلسة السرية ؟ ففكر هنيهة ثم قال : بل الأكرم أن تطلب الحكومة هذه الجلسة السرية . فلما انصرف جعلت أفكر في الأمر ، في هذا التغير المفاجئ في سياسة الحكومة المصرية والحكومات العربية جميعها وفي الدافع إليه .

ولم أكن أجهل أن أهل فلسطين وقوات المتطوعين يتعذر عليها أن تقاوم المهجانات وغير المهجانات من منظمات اليهود العسكرية إذا لم تمد بالسلح والعتاد إمداداً منتظماً . لكنني كنت أسائل نفسي عن مقدرة الدول العربية عسكرياً وعن موقف إنجلترا منها ، وإنجلترا حليفة لمصر والعراق ، وصاحبه الكلمة العليا في شرق الأردن ، وصاحبة النفوذ في دولتي سوريا ولبنان ، بل حامية استقلالهما من غير حماية رسمية .

وفي صباح الغد مر بي دسوقي باشا أباظة وزير الخارجية الحر الدستوري فتناول حديثنا هذا الموضوع الخطير وسألته عن مقدرة مصر إذا دخلت الحرب ، فقال إن الموضوع طرح للبحث في مجلس الوزراء ، وإن حيدر (باشا) وزير الحربية ، أكد أن الجيش المصري وحده بجنوده وعتاده قادر من غير حاجة إلى أية معونة من الدول العربية الأخرى على أن يدخل تل أبيب ، عاصمة اليهود ، في خمسة عشر يوماً ، وإن كل ما لديه من المعلومات تثبت له هذا القول ، وهو لذلك لا يتردد في دفع القوات المصرية إلى أرض فلسطين لمعاقبة العصابات اليهودية التي تعتدى على العرب من أهلها اعتداء وحشيا .

انعقدت جلسة الشيوخ في مساء ذلك اليوم وطلب رئيس الوزراء عقد جلسة سرية في الغد لمناقشة الموقف في فلسطين . ووافق المجلس واقترح تأليف لجنة خاصة من جميع الأحزاب تنعقد فوراً لتستمع إلى بيانات الحكومة وتقدم للمجلس رأياً . ووافقت الحكومة وتألقت اللجنة برئاسة محمد بك الوكيل - وكيل المجلس - وعقدت اجتماعها . وحضر

رئيس الوزراء وأدلى بما لديه من المعلومات . ولم أحضر أنا هذا الاجتماع اكتفاء بما سمعته من رئيس الوزارة ومن وزير الخارجية . وقد أكد رئيس الوزارة في اللجنة أن مصر على أتم استعداد لمواجهة الموقف وأنها ستنتصر على اليهود لا محالة وأن تمنع بذلك قيام الدولة اليهودية التي قررت الأمم المتحدة قيامها حين أقرت تقسيم فلسطين .

وقد ذكر أعضاء اللجنة من بعد أنهم أوضحوا لرئيس الوزارة جسامه المسئولية التي يأخذها على عاتقه لدفع المجلس للموافقة على القرار الذي أبرمه مجلس الوزراء ، وأن بعضهم ذكر له أن عتاد الجيش ليس بالقدر الذي يستطيع به خوض معارك حامية في الميدان ، ولكن رئيس الوزراء نفى كل سبب للتردد وأكد أن لديه العتاد والقوات وكل ما تقتضيه الحرب . ووجد من بعض الأعضاء في اللجنة مشجعاً يدفعهم حماس ديني إسلامي لتأييد ماطلب ، ولذلك رأت اللجنة بالإجماع الموافقة على قرار مجلس الوزراء . وعقدت الجلسة السرية في الغد وعرض عليها الموضوع وقرار اللجنة . وكان إسماعيل صدقي (باشا) عضو المجلس معارضاً في دخول الجيش المصري أرض فلسطين ، وكانت حجته أنه يعلم ، وقد كان رئيس وزارة إلى أواخر سنة ١٩٤٦ ، أن الجيش المصري تنقصه أسلحة كثيرة ، وينقصه العتاد اللازم والكثير من الأسلحة إذا خاض الحرب وكان يخشى فضلاً عن ذلك أن تعتبر الأمم المتحدة دخول الجيوش العربية فلسطين تحدياً لقرار التقسيم فتفرض على الأمم العربية ، ومنها مصر عقوبات لا طاقة لها بها ، أو تمد اليهود بالأسلحة والعتاد وتمنعها عن مصر والأمم العربية فتدور الدائرة عليها ، وأن مصر لا مصلحة لها على أية حال في خوض معركة لا شأن لها بها ولا ناقة لها فيها ولا جمل .

حملت آراء صدقي (باشا) الكثيرين على التفكير في الموقف . لكن الردود عليه أضعفت من تردد المترددين . فقد أكد رئيس الوزارة مرة أخرى أن لدى الجيش المصري السلاح والعتاد لخوض الحرب شهوراً عدة ، وأيد اللواء أحمد عطية (باشا) تصريح رئيس الوزراء ، وكان عطية (باشا) إلى أشهر مضت وزيراً للحربية معه كما كان وزيراً للحربية مع صدقي (باشا) . كذلك تكلم فؤاد سراج الدين (باشا) باسم المعارضة الوفدية فأيد الوزارة تأييداً حاراً ورد على صدقي (باشا) رداً عتيقاً وحجذ دخول القوات المصرية فلسطين . وكان من أثر ذلك أن انسحب صدقي (باشا) من الجلسة وأن قرر مجلس الشيوخ دخول القوات المصرية فلسطين بإجماع الآراء .

أكتب هذا الكلام اليوم بعد انقضاء سنوات على تلك الجلسة السرية التاريخية ،

وأكتبه وقد انتهت الحرب ، وأصبحت إسرائيل من الناحية العملية دولة قائمة على أرض فلسطين ، وقد عقدت بين إسرائيل وبين الدول العربية هدنة دائمة ، وقد أعلنت أمريكا وإنجلترا وفرنسا أنها تكفل بقاء الحالة في الشرق الأوسط بكل الوسائل المنصوص عليها في ميثاق الأمم المتحدة وفي غير ميثاق الأمم المتحدة - أكتب هذا الكلام وأنا لا أزال أسأل نفسي عن السبب في ارتداد الدول العربية عن سياسة معاونة أهل فلسطين والمتطوعين الذين ينضمون إليهم لقتال اليهود . إلى سياسة الزج بقواتها الرسمية المسلحة إلى أرض المعاد ، أمي الدول العربية التي اندفعت إلى هذه السياسة مختارة . أم دفعت إليها كارهة ؟ وهل كانت تقدر نتائجها تقديراً صحيحاً ، أو كانت تؤمر فتأتمر ؟ ومن ذا الذي يأمرها ولأى سبب ؟ سيرى القارئ من بعد أنني جمعت معلومات كثيرة عن حرب فلسطين ، وأنا مع ذلك لا أستطيع أن أجيب جواباً مقنعاً عن هذه الأسئلة .

ظن قوم أن إنجلترا هي التي شجعت الدول العربية لتدفع قواتها المسلحة إلى أرض فلسطين . وقيل يومئذ إنها لم تكن راضية عن قيام دولة إسرائيل بعد الذي رأته من تنكر اليهود لها في أثناء انتدابها . وأنها وعدت الدول العربية أنها ستمددها ولو سراً . بكل ما تحتاج إليه من معونة للانتصار في هذه الحرب . وعلى الرغم من أن عبد الرحمن عزام (باشا) أخبرني بأن إنجلترا بعثت إلى الدول العربية جسيماً كتاباً تحذرها من محاربة إسرائيل وتخوفها مغبة هذه الحرب . لقد قيل إن إنجلترا لجأت في هذا الوقت إلى سياسة مزدوجة . فكتبت ترد العرب عن قتال اليهود لتكوين لها الحجة القائمة أمام الأمم المتحدة ، وأوعزت عن طريق رجالها الرسميين أو غير الرسميين تشجيع الدول العربية على دفع قواتها إلى فلسطين ووعدها هذه الدول بالمساعدة . ثم وقفت موقف المتفرج تمد يد العون تارة وتقبضها أخرى . ولم تكن عبارات عزام (باشا) نفسه تنفي هذا الاحتمال ، فقد قال لي غير مرة إن إنجلترا بدأت تحون الدول العربية بعد أيام معدودة من بدء دخول قواتها في فلسطين .

وظن غير هؤلاء أن الدول العربية هي التي أرادت أن تقوم من تلقاء نفسها بمظاهرة عسكرية ، وأنها كانت مقتنعة بأن الأمم المتحدة تنكر تصرفها وتراه خروجاً على القرار الذي أصدرته ، وقد تفرض عليها عقوبات اقتصادية ، وعند ذلك تنسحب معلنة أنها تلتجئ على الأمم المتحدة تبعة موقف ظالم في الحياة الدولية تخشى آثاره على السلام العالمي .

وذهب غير هؤلاء وأولئك مذاهب في تأويل هذا الانقلاب المفاجئ في سياسة الدول العربية . فقد كانت هذه الدول مصممة ، إلى يوم ١١ مايو ، على ألا تدخل قواتها

الرسمية أرض فلسطين ، ثم تغير موقفها فجأة بعد ذلك اليوم . وليس طبعياً ألا تكون لهذا الانقلاب مقدمات لعل الساسة العرب لم يقفوا كلهم على تفاصيلها . لكن بعضهم على الأقل كان يعرف الكثير من هذه التفاصيل . وأرجو ألا يحرم التاريخ من مذكرات يطبعها العارفون . تميّط اللثام عن الحقيقة ، وتتيح لهذه الدول أن تفيد لمستقبلها من درس قاس وتجربة مؤلمة ألت بالدول العربية ، وبجامعة الدول العربية .

وافق البرلمان الحكومة على أن تدخل القوات المصرية المسلحة فلسطين لمعاينة العصابات اليهودية المعتدية على العرب . وكانت هذه القوات على حدود مصر ، أو كانت قد تجاوزتها فعلاً ساعة صدر هذا القرار . وفي الساعة التي نشرت فيها الصحف قرار البرلمان المصرى نشرت كذلك أن القوات المسلحة للدول العربية المختلفة دخلت أرض فلسطين كل من ناحيتها . ومن يومئذ جعلت الصحف تنشر يومياً أبناء الجيوش وتقدمها ، وأبناء الطائرات المحاربة المصرية وإغاراتها وإلقائها القنابل على تل أبيب .

واشتربت أعناق المصريين من كل الطبقات تتابع أبناء هذا التقدم وهذه الغارات العربية على عاصمة العدو بشغف أى شغف .

لاحظت وأنا أتابع البلاغات الرسمية أن الجيوش العربية لا تلقى مقاومة لأنها تتقدم في المناطق التي خصصها قرار الأمم المتحدة للعرب من أهل فلسطين ، وأنها لما تبلغ الأجزاء التي عينت لإسرائيل فيما خلا أجزاء من منطقة النقب . ومنطقة النقب صحراء غير مأهولة فيما عدا محلات صغيرة أنشأها اليهود ها هنا وهناك . عند ذلك دار بخاطري أن القوات المصرية تكون أكثر إقداماً على القتال وعلى التضحية في الحرب إذا علمت أن منطقة النقب التي تحتلها ستضم إلى مصر . وإني لفي «كلوب محمد على» ذات مساء إذ لقيت إبراهيم عبد الهادي (باشا) ، وكان يومئذ رئيساً للديوان الملكي ، وعبد المجيد إبراهيم صالح (باشا) ، وكان وزيراً للأشغال ، فذكرت بأن الجيوش العربية كلها تسير في مناطق مخصصة لعرب فلسطين ، ولهذا لا تلقى مقاومة ، وأن إكبار البلاغات الرسمية لتقدمها وهي في هذه المنطقة ليس من حسن السياسة في شيء ، لأنها إذا التحمت يوماً بقوات معادية فلم تتقدم بمثل هذه السرعة خيف أن يؤثر ذلك على الروح المعنوية تأثيراً غير حسن . وأجابني إبراهيم عبد الهادي (باشا) في شيء من الانفعال بأن مثل هذا الكلام ليس من المصلحة الوطنية في شيء ، وأن ضيعة البلاغات يجب أن تكون على النحو الذي تصدر به .

وذكرت كذلك رأيي في أن تضم منطقة النقب لمصر يوم تستقر قواتنا المصرية المسلحة

عليها ، فاعترض عبد المجيد إبراهيم (باشا) بأننا دخلنا لإنقاذ العرب من عدوان اليهود فليس يجوز أن نبدو في ثوب من يريد تحقيق مأرب ذاتي .

استمرت أنباء الغارات الجوية تتوالى في الأيام الأولى لدخول قواتنا في فلسطين . وإننى لنى مكتبي برئاسة مجلس الشيوخ بعد أسبوع من بدء القتال إذ قيل لى إن الضابط الطيار سعد الصادق قد قتل . فأسرعت أنقصى النباً فقليل لى إن خمسة من خيرة طيارينا بينهم سعد ، صدر لهم الأمر بمهاجمة مطار للأعداء في فلسطين وأن طائرات بريطانية تصدت للطائرات المصرية وضربتها ، ثم قيل إن هذا المطار ليس لليهود ولكنه للبريطانيين ، وإن قائد القوات البريطانية في فلسطين أبلغ قيادة الطيران المصرى بعدم التعرض لهذا المطار أو تدفع الطائرات البريطانية هجوم الطائرات المصرية . وإن القائد المصرى أغفل تبليغ هذه الإشارة ، فصدرت الأوامر لطيارينا المصريين لمهاجمة المطار فقابلتهم الطائرات البريطانية واشتبكت معهم وقتل ثلاثة من الطيارين المصريين . وقد أزعج هذا النباً كثيرين لأن اليهود لم تكن لهم طائرات تستطيع مقاومة الطائرات المصرية .

ساورنى لهذا النباً أشد الأسف والدهشة . ففلسطين تجاورنا وطائرات شركة مصر للطيران تطير بانتظام من القاهرة إلى اللد كل يوم . وطبيعى أن يعرف رجال الطيران المدنى مطارات فلسطين جميعاً . وطبيعى أكثر من ذلك أن يعرف رجال الطيران الحربى هذه المطارات . فكيف غاب عن هؤلاء وأولئك ، وكيف غاب عن قلم المخابرات في جيشنا ، أن يعرف مطارات اليهود ومطارات البريطانيين . ودهش كثيرون كما دهشت وجعلنا نفكر في المستقبل ونرجو الله أن يوفق الدول العربية في هذه الحملة التى أقدموا عليها .

لا أستطيع أن أحدد ما لهذا الخطأ من دلالة على كفاية قيادتنا المصرية . لكننى اتصلت بى من بعد أنباء تثير العجب . ذكر لى صديقى حافظ عفيفى (باشا) أنه كان بمكتب حيدر (باشا) وزير الحرية يوماً وأن الوزير اتصل بقائد القوات في فلسطين وتبادل معه حديثاً خاصاً باستيلاء القوات المصرية على بئر سبع . كان رأى الوزير أنه يجب الاستيلاء على بئر سبع فى ذلك اليوم . وكان رأى القائد الذى يتحدث من الميدان أن الاستيلاء على الموقع فى اليوم نفسه يكلف الجيش تضحيات وخسائر يمكن تفاديها إذا حوصرت بئر سبع ثلاثة أيام . وكان جواب حيدر (باشا) : كلا لابد من الاستيلاء عليها اليوم بكل ثمن فلهذا أثر سياسى مطلوب فى مصر . والتقيت فى مكتب جمال الدين (بك) العبد بضابط كان فى فلسطين قصص على قصة أكثر من السابقة إثارة للدهشة . فقد نشرت الأنباء قبل ذلك

أن طوريبداً إسرائيلياً نفس البارجة المصرية « مصر » ثم نجت بارجة أخرى من الطوريبداً الذى كان منصوباً لها بمحض الصدفة. وقد ذكر هذا الضابط بمكتب جمال الدين (بك) أن البارجتين المصريتين كانتا فى موقف المهاجمة لقوات إسرائيل ، وأنهما أبلغتا القيادة البحرية أنهما على أتم الاستعداد لضرب الأهداف التى أمامهما ضرباً محكماً . وأمرتهما القيادة بالانتظار حتى تتصل بالقاهرة تليفونياً وتتلقى أوامرها . وفى الدقائق التى انقضت والتى كانت القيادة البحرية تنتظر أوامر القاهرة لتبلغها إلى البارجتين أطلق الطوريبدان ، فنسفت البارجة مصر ، واضطرت البارجة الأخرى للانسحاب مخافة أن يصيبها طوريبداً آخر ينزل بها إلى قاع البحر .

سقت هذين المثلين تذكيراً بما كان يقال من أن حملة فلسطين كان مركز قيادتها فى القاهرة . وهذا وضع لم يحدثنا تاريخ الوقائع عن شيء من مثله . لكن تأويله أن الذين أسندت لهم القيادة المحلية فى فلسطين لم يكونوا موضع الثقة بالقدر الذى يسمح لهم بتحمل التبعة عن تصرفاتهم أمام الوزير ، فكان الوزير يتولى القيادة بنفسه من مكتبه . وهذا التأويل يبدو واضحاً حين نذكر أن قيادة القوات أسندت أول أمرها إلى الماوى (بك) ، ولم يكن قد بلغ فى المراتب العسكرية درجات عليا ، ولم تكن له تجارب فى الوقائع الحربية تؤهله لهذه القيادة . أنا لا أعرف الماوى (بك) ، والذين يعرفونه يقولون إنه رجل سمح النفس رضى الخلق ، لكنهم يذكرون أنه لم يتول القيادة قط ، وأنه إنما عهد إليه بتدريب القوات المصرية فى رفع قبل دخولها فلسطين من غير أن تكون لديه الفكرة عما هو مقبل عليه من دخول فلسطين أو قيادة قوات مقاتلة فيها .

كان منتظراً أن تعنى الأمم المتحدة بما حدث وأن تحاول جهداً تلافياً . وهى المسؤلة الأولى عن تقسيم فلسطين ، وهى مسؤلة بحكم ميثاقها عن ملافاة أخطار الحرب حيث تقع من أرجاء العالم . وقد عنيت المنظمة فعلاً بما وقع ، وأوفد مجلس الأمن الكونت فولك برنادوت السويدى وسيطاً بين إسرائيل والدول العربية يلتمس حلاً للموقف . وجاء الرجل إلى فلسطين وقابل ساسة الدول العربية كما قابل ساسة إسرائيل . وأذكر يوماً قابلت فيه النقراشى (باشا) لبعض مسائل تشريعية فعلمت أن الكونت برنادوت على موعد معه . فسألت رئيس الوزراء عما إذا كان الكونت يعرض اقتراحاً معيناً فأخبرنى أنه لم يره بعد ولكنه سمع أنه يفكر فى

وقف القتال إلى أن يتمكن من الاهتداء إلى حل للمشكلة . ولما سألت النقراشي (باشا) عن رأيه في هذه الهدنة أخبرني أنه لم ينته في الأمر إلى رأى بعد . ولما لم أكن على علم دقيق بمجرى القتال ، لم أجازف بأن أبذل له في الأمر أية مشورة .

وكانت أنباء القتال كما تصفها البلاغات الرسمية مطمئنة إلى حد يشعر معه من يقرأها أو يسمعها أن الدول العربية ، توشك بالفعل أن تدخل تل أبيب . من أجل هذا لم يتحمس الرأي العام لفكرة وقف القتال أو إعلان الهدنة ، بل كان الناس جميعاً ، على اختلاف طبقاتهم ، يميلون إلى مواصلة القتال حتى ينهزم اليهود وتدخل الجيوش العربية بالفعل عاصمة إسرائيل . ثم يبدأ الحديث في الهدنة أو في الصلح . وكان لهم عذرهم من ذلك اقتناعهم بفوز العرب وتضييقهم الخناق على اليهود في كل مكان ، وفي كل ميدان . على أنهم مع ذلك كانوا يتساءلون ما عسى أن تصنعه الأمم المتحدة إذا لم تقبل الدول العربية الهدنة ؟ هل يتخذ مجلس الأمن إجراء من الإجراءات المنصوص عليها في الميثاق ومن بينها توقيع الجزاءات الاقتصادية أو الذهاب إلى أبعد من هذه الجزاءات الاقتصادية .

واستمرت اتصالات الدول العربية زمناً اجتمع بعده وزراء خارجية هذه الدول بعمان عاصمة شرق الأردن ، وأسفر اجتماعهم عن قبول الهدنة لمدة ثلاثة أسابيع . وكان الموعد الذي تحدد للهدنة الساعة التاسعة من صباح يوم الجمعة ١١ يوليو سنة ١٩٤٨ وكنت يومئذ مسافراً مع أسرتي نضى الصيف على شاطئ البحر في بور فؤاد ، وفي الساعة التاسعة دوى صوت حيدر (باشا) وزير الحربية المصرية ، من راديو السيارة . يعلن وقف القتال وبدء الهدنة .

كنت مقتنعاً يومئذ بأن إعلان الهدنة معناه انتهاء القتال بين الدول العربية وإسرائيل إلى غير عودة ، وبأن الأمم المتحدة ستتدخل تدخلاً إيجابياً بكل وسائلها لفض هذا النزاع المسلح الذي يوشك أن يهدد السلام العالمي ، وأن الجيوش المتحاربة ستعود كلها إلى أوطانها عما قريب .

وبقيت أتبع الأنباء وأنا بمصيفي بكل عناية . وكنت أتوقع أن أسمع فيها أن الكونت فولك برنادوت وسيط الأمم المتحدة ، قد وضع مشروعاً مبدئياً للصلح ، وأن مفاوضات ستبدأ على أساس هذا المشروع ، وإذا بدأت المفاوضات استطال أجلها بطبيعة الحال ، ثم انتهت إلى نتيجة أيّاً تكون .

وبدا من الإداعات المختلفة أن برنادوت يبذل جهداً ضخماً يرجو أن يوفق فيه إلى غاية تقرر السلام في نصابه وتعيد الجيوش إلى معسكراتها . وكم عجبت لدى سماعي الإذاعة

في اليوم الأخير من أيام الهدنة حين تلا المذيع أن برنادوت عرض مد الهدنة ثلاثة أيام وأن الدول العربية رفضت هذا العرض وأصدرت الأمر إلى جيوشها بالعود إلى القتال . واقتنعت إذ ذاك بأن الدول العربية قد تزودت من العتاد وقد نظمت صفوفها تنظيمًا أقنعها بأنها قادرة على التقدم من المواقع التي عسكرت فيها يوم الهدنة لتقتحم على اليهود عاصمتهم في أيام معدودات .

وعاد القتال بين جيوش العرب وجيوش اليهود . وتقصت أيام والناس في شغل لمعرفة ما يدور في ميادين القتال . وهم ينتظرون بين ساعة وأخرى ، وبين يوم وآخر أن تطالعهم البلاغات الرسمية بدخول الجيوش العربية تل أبيب .

وقد كان لهم كل العذر في توقعهم هذا . فقد كانت البلاغات الرسمية التي تصدرها السلطات المصرية كلها التفاؤل الذي لا تفاؤل بعده . وإنهم لذلك إذ أذاعت هذه البلاغات الرسمية أن جناح الجيش الأردني المتصل بالجيش المصري ، والمرابط في النجف والمد والرملة ، قد تخلى عنهما . فاستولى عليهما اليهود .

من يومئذ بدأت حركات الجيوش العربية تبعث إلى النفوس شيئاً من الريبة ، وإن أبي الناس أن يصدقوا أن قوة إسرائيل تستطيع أن تغلب على جيوش الدول العربية الست المشتركة في القتال . وبدأ الناس يسمعون بعد ذلك عن تخلي بعض الجيوش العربية عن البعض الآخر ، وعن تجسس بعض العرب الفلسطينيين لحساب اليهود . لذا بدأ التفاؤل الأول يذوى شيئاً فشيئاً . ثم بدأت الأمم المتحدة تظهر حرصها على إعادة السلام إلى منطقة الشرق الأوسط . وجعل الناس يتكلمون في اقتراح برنادوت قيام هدنة ثانية بين الدول المتحاربة .

كان المؤتمر البرلماني الدولي سيجتمع في روما في الأسبوع الأول من شهر سبتمبر من ذلك العام . وقد سافرت إلى العاصمة الإيطالية أنا وزملائي أعضاء الوفد البرلماني المصري لهذا المؤتمر قبل انعقاده بأيام ونزلنا فندق اكسليسيور . وإني هناك إذ حدثني بالتليفون شخص لا أعرفه وذكر لي أنه يريد مقابلتي من قبل السيد الياهو ساسون . وساسون موظف كبير في وزارة خارجية إسرائيل قابلني بالقاهرة غير مرة في رئاسة مجلس الشيوخ وفي منزلي ، وكان ذلك قبل قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين وبعده ، وحاول إقناعي بأن من الخير تفاهم مصر مع اليهود ، وساق لي من الحجج مثل ما كان يسوقه ذلك الشخص الذي تحدثت عنه في أول هذا الفصل . ولما كان الموقف قد تغير بعد قرار الأمم المتحدة ، وبعد

قيام الحرب بين اليهود والعرب ، حددت موعداً لهذا الشخص على أقف منه على اتجاه اليهود في هذا الظرف الجديد . فلما جاء إلى بالفندق سألتني عما إذا كنت أطيل مقامي بإيطاليا بعد المؤتمر البرلماني ، لأن المسيو ساسون يريد أن يقابلني في الأيام الأولى من أكتوبر . فذكرت له أنني مسافر إلى شمال إيطاليا أحضر المؤتمر التجاري ومؤتمر السياحة اللذين يعقدان بجينوا ورابالو ، وأنى سأسافر في الأسبوع الأخير من سبتمبر إلى جنيف بسويسرا وسأقيم بها عشرة أيام أو أسبوعين . وحاولت أن أقف من هذا الشخص على ما يريده مسيو ساسون من مقابلي فلم يقل شيئاً ذا بال .

وسافرت إلى شمال إيطاليا ثم انتقلت إلى جنيف وهناك قابلني مسيو ساسون وبدأ يحدثني في عقد الصلح بين مصر وإسرائيل . قال : أصرحك بأننا لا نغني من الدول العربية بغير مصر ، وأننا حريصون كل الحرص على إقامة العلاقات بيننا وبينها على أساس من المودة والصداقة . فقلت : وعلى أي أساس تريدون أن يقوم هذا الصلح . أنا لا أعرف الخطة التي قررتها الحكومة المصرية ولكن أريد أن أعرف عزمكم أنتم ، فإذا اقتنعت بأن فيه ما يصلح أن يكون أساس حديث في أمر الصلح أقضيت به إلى الحكومة المصرية ، وأود أن أذكر لك رأياً شخصياً لي لم أفتاح به أحداً من المسؤولين في مصر . ذلك أن تنازلوا أنتم صراحة عن منطقة النقب لمصر وأن تعلنوا استعدادكم لهذا التنازل قبل كل حديث . وأجاني الرجل في لهجة لم أرضها : وما حاجتكم إلى النقب ولديكم أنقاب كثيرة لم تصلحوا منها شيئاً . يريد أن صحارى مصر الواسعة لم تنل منا عناية أو إصلاحاً . وكفنتي هذه العبارة لأكف عن المضي في الحديث فقلت : أظن إذن أنه لا فائدة من الحديث فيما قصدت إليه .

وكنيت أرمي من مواجهته بمسألة النقب إلى غرضين . أولهما : تشديد عزائم الجنود المصرية إذا هي علمت أنها تحارب في سبيل مصلحة قومية ، وأن تضحياتها لن تذهب سدى . والثاني جس النبض لمعرفة ما يريد اليهود من الحديث مع مصر وهل هو يدل على أنهم سئموا القتال فهم يريدون الصلح مخلصين ، أو أنهم يريدون بهذا العرض أن يفرقوا كلمة الأمم العربية بعد الذي كان من تخلي الجيش الأردني في اللد والرملة وتعرض جناح الجيش المصرى بهذا التخلي لهجوم اليهود عليه . فلما رأيت مسيو ساسون يتحدث بلهجة لم ترضني آثرت عدم المضي في حديث لا جدوى من المضي فيه . .

وعدت إلى مصر في منتصف أكتوبر وليس في نيتي أن أذكر لأحد شيئاً عما دار بيني

والمسيو ساسون . وصرفني عن التفكير في هذا الأمر أن أوسع الصحف الموالية للحكومة انتشاراً انتهزت فرصة غيابي عن مصر فحملت على حملة غير كريمة فصلتها في موضع آخر من هذا الكتاب ، فأقنعني ذلك بأن أي حديث أقضي به إلى الحكومة في هذا الموضوع سيتخذ وسيلة لتغذية هذه الحملة . من ثم لم يكن لهذا الحديث أية نتيجة ، ولم أعره من جانبي أي عناية .

كان القتال بين العرب واليهود في فلسطين يجري في هذا الوقت على نحو لا يبعث إلى نفوس العرب ، ولا يبعث إلى نفوسنا في مصر ، أي معنى من معاني الرضا . وقد بدأت الجيوش المصرية تنسحب من مواقع احتلتها ، وفي مقدمتها بئر سبع ، وقد حصرت قوات مصرية في الفالوجا وقد قيل إن الجيوش اليهودية تتقدم إلى الحدود المصرية ، ثم قيل إن هذه الجيوش تخطت الحدود المصرية . هذا وكان الكونت فولك برنادوت وسيط الأمم المتحدة يسعى في هذه الأثناء لوضع أساس للصالح بين إسرائيل والدول العربية ، فلما يش من ذلك رأى أن يرفع إلى الأمم المتحدة تقريراً برأيه في الموقف وطريقة حله . وقد رفع هذا التقرير بالفعل واقترح فيه أن تعطى منطقة النقب للعرب ، وأن يعرض اليهود عن ذلك بأن يعطوا منطقة الجليل الغربي المجاور للبنان . وكان هذا التقرير سيعرض في الجمعية العامة للأمم المتحدة حين انعقادها بباريس في شهر سبتمبر من سنة ١٩٤٨ .

وإن الناس لينتظرون انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة إذ وردت الأنباء أن اليهود اغتالوا الكونت برنادوت وقضوا على حياته . وأثار هذا الحادث الوحشي ثائرة العالم كله فلم يعرف في التاريخ أن الرسل تقتل . وبرنادوت لم يكن إلا رسول الأمم المتحدة للفرقيين المتحاربين في فلسطين . هذا إلى أن الرجل كان نزيه الغاية ، يريد خير الإنسانية وإن أغضب اليهود والعرب جميعاً . ولهذا نظر الناس في كل الأمم إلى التقرير الذي وضعه على أنه وصية لرجل شريف ، وأن من الواجب على الأمم المتحدة أن تقر هذه الوصية وتنفيذها .

ما عسى أن يكون موقف الدول العربية من هذه الوصية ؟ لقد كانت تدرك أن لها مصلحة كبرى في قبولها . وكانت إنجلترا وأمريكا قد بعثت إليها تبلغها أنها إذا قبلتها وجدت تأييداً تاماً من الدولتين الكبيرتين ومن مجموعة الدول الدائرة في فلكهما ، وهذه المجموعة تؤلف أغلبية عظمى في الجمعية العامة للأمم المتحدة . ولم يكن ثمة ريب في أن إسرائيل ستقف بكل جهدها في سبيل هذه المقترحات التي أدت إلى أن يقتل اليهود برنادوت ، فإن هي فعلت انقلبت الكفة في الأمم المتحدة وأصبح العرب موضع عطفها بعد أن كان اليهود موضع

هذا العطف . لكن الدول العربية نظرت إلى المسألة من ناحية أخرى . فهي إن أقرت مقترحات برنادوت أقرت التقسيم الذي طلبته الأمم المتحدة . والتي قامت الدول العربية في وجهه وحاربه بقواتها المسلحة . ألا يكون هذا دليلاً على أنها كانت معتدية في قتالها إسرائيل اعتداء لا مسوغ له بعد قرار التقسيم . وهل تطمئن الدول العربية إلى حسن النية في عرض إنجلترا وأمريكا عليها أن تقبل وصية برنادوت . هذه كلها أمور تدعو إلى الحيرة وإلى طول التفكير .

لم يكن ثمة داع يدفعني إلى التفكير في الموقف الذي تتخذه مصر والدول العربية في هذا الأمر . وقد كانت الدول البرلمانية العربية « مصر وسوريا والعراق ولبنان » تعمل إذ ذاك على إنشاء اتحاد برلماني عربي . وكانت لبنان قد دعت هذه الدول إلى اجتماع يعقد بصوفر في شهر أغسطس من تلك السنة . سنة ١٩٤٨ . وإذ كنت أنا الذي رأست وفد مصر لدى الأمم المتحدة في سنتي ١٩٤٦ و ١٩٤٧ فقد طلبت إلى صديقي إبراهيم دسوقي أباظة (باشا) سكرتير الأحرار الدستوريين العام أن يسأل النقراشي (باشا) رئيس الوزارة عما إذا كانت هذه الرئاسة ستسند لي في هذه السنة كذلك . حتى أدرس الموضوعات التي ستعرض في الجمعية العامة وأهمها موضوع فلسطين . وقد عاد فأخبرني بأن وزير الخارجية ، أحمد محمد خشبة (باشا) ، يحرص على أن ينوب الرئاسة في هذه السنة التي تعقد فيها الجمعية بباريس . ومع أنني سافرت بعد ذلك مباشرة إلى لبنان وكنت سأسافر بعد أيام من عودتي منها إلى روما لحضور المؤتمر البرلماني الدولي ، فقد اتخذت مسألة رئاسة وفد الأمم المتحدة مادة للحملة على من جانب الصحف الموالية للحكومة حملة أشرت إليها من قبل .

أعفاني إسناد الرئاسة إلى خشبة (باشا) عن التفكير في الموقف الذي تتخذه مصر والدول العربية من مقترحات برنادوت . على أنني علمت - حين عودتي من أوروبا بعد اشتراكي في مؤتمر روما البرلماني - أن اللجنة السياسية اجتمعت وفكرت في الأمر ثم ظلت في موقف الحيرة الذي أشرت منذ حين إليه . فلما سافرت وفودها إلى باريس وبدأت أعمال الجمعية العامة اجتمع رؤساء هذه الوفود وتباحثوا من جديد في موقفهم من وصية الرجل الذي قتله اليهود ، هذه الوصية التي كانت موضع عطف شديد من أغلبية الأمم المتحدة . ولقد أخبرني من اتصل بهذه الاجتماعات وبهؤلاء الرؤساء أن دقة الموقف لم تخرجهم من حيرتهم وأنهم قبلوا أخيراً ما اقترحه عليهم بعض الممثلين السياسيين لدولهم أن يبلغوا إنجلترا وأمريكا أنهم لا يعارضون ما اقترحه برنادوت ، ولكنهم لا يستطيعون أن يصوتوا صراحة معه . فإذا أقرته الأمم المتحدة قبلوه أساساً للصالح وتسوية الموقف في فلسطين .

كان اليهود يبدلون غاية الجهد في هذه الأثناء لإقناع الدول كلها بأن موقف العرب ليس له من مظهر الجدل ما يسمح من بعد بالاعتماد عليهم ، وبأن اقتراح برنادوت لا يسمح لإسرائيل بالتوسع من غير أن تضطر إلى اتخاذ موقف غير ودي إزاء الدول العربية وبأنهم سينفقون في إصلاح منطقة النقب من الجهد والمال ما لم ينفق العرب شيئاً منه في أثناء القرون الطويلة المتعاقبة التي كان هذا النقب في أثنائها في حكمهم . واستطاع اليهود ببراعتهم أن يكسبوا إلى جانبهم عدداً من الدول كفل لهم عدم نفاذ ما اقترحه برنادوت ، وكذلك انقضت دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة ولم يفد العرب منها شيئاً مما كانوا يطمعون فيه .

كان السكرتير العام للاتحاد البرلماني الدولي قد بعث إلينا يخبرنا أن لجنة الاتحاد التنفيذية ستعقد بباريس في ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨ ، وبأن لورد ستانيسجيت رئيس مجلس الاتحاد والكونت كارتون دفيار رئيس الشرف سينزلان وينزل هو معهما بفندق لوتسيا بباريس فحجزت لنفسى غرفة بهذا الفندق نفسه . ووصلنا باريس بالطائرة في المساء .

وما كان أشد عجبى إذ دق التلفون بغرفتي في الصباح ، وإذا علمت أن محدثي هو يحيى الشاب الإسرائيلي الذي لقينى بروما ، وأنه يريد أن يلتقى هو وأحد زملائه . وذكرت له أنني مشغول ثلاثة الأيام التالية باجتماعات اللجنة التنفيذية . وأنتى سأقيم أسبوعاً بعد ذلك بباريس . فإذا كان حريصاً على لقائى فليلتى في اليوم الرابع . وقد تولتني الدهشة حين أظهر حرصه على هذا اللقاء . فقد كنت أحسب أن ما دار بينى وبين المسيو ساسون بجنيف قد قضى على كل رجاء يدعو إلى استئناف الحديث في موقف إسرائيل من مصر أو موقف مصر من إسرائيل ، والحوادث التي توالى بعد ذلك أمعن في تقرير هذا المعنى . وأى جديد يريد أن يحدثنى هذا الشاب أو أن يحدثنى زميله فيه ؟

واجتمعت اللجنة التنفيذية في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى . وبعد ساعة ونصف الساعة من انعقادها ناولنى حاجب الغرفة التي نجتمع بها ورقة فضضتها فإذا عليها توقيع مدير وكالة الصحافة الفرنسية (Agence France Presse) وإذا هى تذكر أن النار أطلقت على النقراشى (باشا) رئيس الوزارة المصرية فأودت بحياته ، وإذا هذا المدير يسألنى رأى فى هذا الحادث . وانزعجت لدى تلاوة الخبر وخرجت من فورى فقابلت مرسله وسألته إن كان ما ذكره مؤكداً ، فأنا أعلم أن النقراشى (باشا) يحيط به فى غدواته وروحاته حرس قوى يقظ . فلما أكد لى الرجل صحة الخبر اعتذرت إليه عن عدم الإدلاء بأى حديث ، وبأننى يجب أن أذهب إلى السفارة المصرية فوراً ، وعدت فاستأذنت لورد ستانيسجيت وأطلعت على

الخبر فانزعج لأنه كانت بينه وبين النقراشي (باشا) مودة في أثناء وجوده على رأس المفاوضات
البريطانيين في القاهرة في سنة ١٩٤٦ . وذهبت إلى السفارة أستطلع أدق الأنباء ، ثم عدت
بعد الظهر أتابع الاشتراك في اللجنة التنفيذية .

أفصّد هذا الحادث ذلك الإسرائيلي عن التثبث بمقابلتي ؟ كلا . بل خاطبني صباح
الغد بالتليفون يخبرني أنه استاء لمقتل النقراشي باشا ، وبأن إبراهيم باشا عبد الهادي كلف
بتشكيل الوزارة الجديدة ، وبأنه وصاحبه سيحضران للقائي في الموعد الذي سبق تحديده .
وكنت قد عرفت من أنباء القاهرة وتأليف الوزارة الجديدة بها أكثر مما أبلغني . ولما كان الموعد
الذي ضربته له لقيته هو وصاحبه بغرفتي وسألتهما عما جد من الحوادث مما نستطيع الحديث
فيه .

وعادا يخبراني أن إسرائيل حريصة أشد الحرص على صداقة مصر ، وأن مصر ترغب
عن هذه الصداقة لأمر لا يفهمانه وأن إسرائيل قدمت لمصر ما تعتقده الأساس الصالح
لعلاقاتهما في المستقبل . وسألتهما فعلمت أن إسرائيل بعثت بمشروع لمعاهدة مودة وصداقة
تعقدها مع مصر ، وأن هذا المشروع أبلغ إلى إبراهيم عبد الهادي (باشا) وهو في رئاسة
الديوان ، وأنهم لم يتلقوا منه رداً . وسألتهما إن كانت لديهم صورة من هذا المشروع أستطيع
الاطلاع عليها ، فوعدا بإرسالها لي صباح الغد ، وبأن نلتقي مرة أخرى بعد يومين لأبلغهما
رأى في هذا المشروع . وصدق الرجلان . فقد تلقيت صباح الغد من ذلك اليوم مظروفاً
فضضته فإذا به هذا المشروع الذي حدثاني عنه .

وتلوت مقدمة المشروع ومواده فتولاني العجب أشد العجب . لقد صيغ على غرار المعاهدة
المصرية البريطانية التي عقدت في سنة ١٩٣٦ . لكن إسرائيل تملئ فيه على مصر ما هو أقسى
مما ورد في معاهدة سنة ١٩٣٦ . فالدولتان الساميتان المتعاقدتان يجب ألا تتخذ أيهما سياسة
في البلاد الأخرى تناقض سياسة الدولة الأخرى ، ويجب أن تخف أيهما لنجدة الدولة الثانية
إذا تعرضت للاعتداء ، ويجب أن تعامل كلتاها بشروط الدولة الأكثر رعاية في أراضي الدولة
الأخرى ، إلى غير ذلك من شروط أثارت دهشتي ، حتى لقد ظننت أن المشروع لم يجرؤ
أحد على إرساله إلى مصر ، وأنهما أخبراني بذلك ليقفا على رأى فيما تعترم بلادهما التقدم به
إلى الدولة العربية الكبرى .

فلما حضرا صباح الغد سألتهما من جديد : أحق أن هذا المشروع أرسل إلى مصر
فأكدا لي أنه أرسل إلى الديوان الملكي ، وأنه سلم إلى إبراهيم عبد الهادي (باشا) رئيس

الديوان ، وأن الحكومة المصرية لابد قد اطلعت عليه . قلت : ولكنكما تعلمان أن المصريين جميعاً يعترضون اليوم أشد الاعتراض على معاهدة سنة ١٩٣٦ ، فليس بينهم حزب وليس بينهم رجل سياسى يستطيع أن يصرح اليوم بأنها مرضية لمطالب وطنه . فكيف تطمعون أنتم فى أن ترضى أية حكومة مصرية عن هذا المشروع الذى أطلعتما على عليه وهو أشد وطأة على مصر من معاهدة سنة ١٩٣٦ . قالوا : ولكن توقيع معاهدة بيننا وبين مصر سيكون المقدمة لإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ . فستعمل إسرائيل بما لديها من مختلف الوسائل لتعاونكم على إلغائها . قلت وقد استغفرتنى هذا الكلام : إن مصر قادرة بمفردها على تحقيق أهدافها ، وستبلغ ما تريد عما قريب . قالوا : إذن فأشر علينا بما يجب أن نصنعه لنوطد بيننا وبين مصر علاقة مودة وصداقة . قلت : لا تظنوا أن الموقف الحاضر يعاون على أى إجراء رسمى يحقق هذه الغاية ، فلا تزال الخصومة بين مصر وإسرائيل على أشدها . ومصر إلى اليوم لم تعترف بإسرائيل ، ولست أظن أنها تعتزم الاعتراف بها عما قريب . أما وقد سألتما أن أشير عليكم فالرأى عندى أن تتركوا الأمور عاماً أو عامين أو ثلاثة ، وألا تثيروا أنتم أية ثائرة من جانبكم . وكثيراً ما حل الزمن مشكلات عجز أقدر الساسة وأمهرهم عن حلها . فالزمن هو الذى يثبت من الأشياء ما هو قادر على الحياة ويمحو ما هو غير قادر عليها . أما إذا تعجلتم الأمور فلشد ما أخشى ألا تبلغوا من تعجلكم إلى غاية مع مصر أو غير مصر .

فكرت بعد ذلك طويلاً فيما سمعت من رجال إسرائيل خلال هذه السنة الأخيرة : أصبح أنهم لا يعنون من الدول العربية بغير مصر ، أم أن لهم اتصالات بسائر هذه الدول . وقد تكون اتصالاتهم هناك أسعد حظاً من اتصالاتهم بى أو بغيرى من المصريين ؟ لقد ضعفت تضامن الجيوش العربية ضعفاً ظاهراً منذ انسحب جيش الأردن ، أو الجيش العربى ، على ما كان يسميه الملك عبد الله ، من اللد والرملة . وقد نشرت الأنباء منذ بدأت مفاوضات الهدنة بوساطة وسيط الأمم المتحدة الذى حل محل الكونت برنادوت السويدى ، المستر رالف باناش الأمريكى ، أن هناك اتصالات مباشرة بين إسرائيل وشرق الأردن ، وأن العراق فوض شرق الأردن ولم يفوض دولة عربية سواها فى التحدث باسمه . وقد انسحبت قوات لبنان بعد قليل من بدء الحرب ووقفت عند حدود بلادها . ترى أليكون الأمر قد بلغ إلى حيث استطاعت إسرائيل واستطاعت السياسة الدولية أن تفرق بين الدول العربية ، وأن تصل بين كل واحدة منها وبين إسرائيل لعقد صلح منفرد ؟

لم أقف طويلاً عند هذه الأسئلة ولم أحاول الإجابة عنها . ولم يكن لدى معلومات كافية

عن سياسة الحكومة المصرية نفسها ، برغم أنني رئيس الهيئة التشريعية فيها . وليس يجمل بى أن أحكم على موقف الدول العربية الأخرى استناداً إلى معلومات مبتورة أو مشوهة تنشرها الصحف أو ألقاها نتفاً من هنا ومن هناك من الرجال الرسميين ومن الرجال غير الرسميين .

وعدت إلى مصر بعد أسبوع من انتهاء أعمال اللجنة التنفيذية وبعد أن تألفت وزارة إبراهيم (باشا) عبد الهادى . وتشرفت بمقابلة جلالة الملك وأفضيت فى هذه المقابلة بموجز من أعمال اللجنة التنفيذية وبتفصيل ما دار بينى وبين هذين الإسرائيليين . وما دار قبل ذلك بينى وبين مسيو ساسون حين كنت بجنيف . فابتسم جلالتى بعد أن أتممت حديثى وقال : لقد بلغ من أمر هؤلاء القوم أن خاطبوني مباشرة بخطاب بعثوا به ، وكان أمامهم طريق الحكومة أو طريق الديوان .

فى هذه الأثناء كانت المحادثات دائرة فى قبرص يتوسط فيها وسيط الأمم المتحدة بين مصر واليهود ابتغاء الوصول إلى هدنة دائمة بين الفريقين .